

ميسره الدندراوي

صمت مزعج

رواية

الرواق للنشر والتوزيع

صمت مزعج

رواية

ميسره الدندراوي



الرواق للنشر والتوزيع



إلى روح أبي محمد الدندراوي

إلى روح أخي إسلام هاشم

حتى القاكم



إليكِ.. يا «غمامة وردية مرَّت مصادفة بخط الاستواء»

إلى عائلتي التي صنعتني

إلى إخوتي في غربة السفر.. وإخوتي في غربة الوطن

إلى روح عاطف الطيب



«أن تكتشف الظلام في داخلك هو أسهل الطرق لاكتشاف الظلام داخل الآخرين»

كارل جوستاف يانج



عبد البر صليحة

خطوات..

هكذا هي الحياة

خطوات أخطوها منذ أن كنت غرًّا صغيرًا لا يعرف للدنيا أقفالا يستعصي عليه فتحها.. أقفالا كانت تفتح بقفزة فوق سور قصير لمدرسة خاتم المرسلين الإعدادية.. أو رصيف كلية دار العلوم..

خطوات أصبحت هي كل شغلي الشاغل منذ أن صعِدتها على سلم حجري ملتوٍ إلى شقة في الطابق الرابع ببناية قديمة، تقع وسط شوارع متهالكة أضناها شرب ماء الصرف الصحي وماء خراطيم أصحاب الورش.. وشرب الماء الذي تلقي به عنايات زوجة برعي الجزار فوق رؤوس الأطفال اللاعبين تحت شرفتها المتهالكة بعد غسيل ليلة خميس صاخبة.

خطوات أصبحت هي حياتي المملة الرتيبة، كرتابتها عندما أخطوها فوق سلم مرتفع يصل الجانب الأيمن من محطة الملك الصالح للجانب الأيسر الذي يلقي بي داخل وحش أزرق جامح يتغذى على الكهرباء.. وحش يبتلعني فيلوكني ثم يتلمظ من مرارة عظامي، ويلقي بي كخرقة بالية فوق رصيف محطة طرة الأسمنت.. حيث تقع مدرسة إعدادية حقيرة أعمل فيها مربيًا فاضلاً لأجيال لم تذق طعم التربية.

خطوات ترفعني فوق ظهر ميكروباص متهالك الأبواب بلا نوافذ..

تنفذ له رائحة الأسمنت المحترقة فتحرق الباقي من ثنايا رئتيّ اللتين لم تحرقهما أحجار المعسل المتراصة على نرجيلة عكرة المياه في قهوة جمعة.

أجلس للمرة الأولى منذ شهرين فوق مقعد بلاستيكي وسط تلافيف أمعاء الوحش الأزرق.. مقعد مخصص للوجبات المرة البالية مثلي.. كتب عليه فوق ورقة ممزقة (مقعد مخصص لكبار السن وذوي الاحتياجات الخاصة).. أمسك بجريدة تحولت إلى ربع جريدة كي لا تتمزق أطرافها من تحركات بني آدم الواقفين حولي فتبقيها لي أملا في جلسة مسائية رائقة في قهوة جمعة.. وبجواري يجلس هو..

شاب أشبه بسعفة نخيل قصت شعراتها الخضراء.. له لحية خشنة نابتة في تمرد فوق صدغيه ومنابت شاربه.. وقميصه الكاروه الواسع يتطاير مع الهواء المترب القادم من نافذة المترو الزجاجية عسيرة الفتح عسيرة الغلق.. النافذة التي وضعت على وضعها هذا منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها.. يمسك بهاتف محمول من طراز يحتاج إلى مرتبي المتواضع في عامين كي أحظى بشاشته المضيئة الملونة.

الشاشة تتراقص عليها جمل قصيرة فوق خلفية بيضاء بحاشية زرقاء كلون السماء.. هذه جريدتك إذن يا فتى.. هذا الاختراع الماسخ عديم الطعم والرائحة.. هذا الاختراع الذي لا تفوح منه رائحة الأحبار الرديئة ولا يعطيك ملمسه خشونة مثيرة كجريدتي الحالمة النائمة بين كفي كجنين مطمئن.

جمل قصيرة بلا روح.. شاب ما يسخر من العجزة المنبطحين أمثالي في حروف قليلة.. حروف لا يعرف عندما كتبها أن عددها مضروب في مليون يعطيك الكثير من الأسباب التي قد تبقيك منبطحًا إلى ما شاء الله.. من أنت كي تهزأ مني ومن أمثالي ومن انبطاحهم في وجه حاكم أو سلطة.. ماذا خبرت في حياتك يا حامل الهاتف الذكي كي تعرف أن الانبطاح هو الحل الأمثل.. ماذا رأيت من خبرات وأهوال كل يوم وكل ساعة راحت تنتقص من مساحات السواد في رأسك، ثم راحت تأتي على



المساحات النابتة كي تعلمك أن الانبطاح دائمًا أفضل؟!

ـ حضرتك محتاج الموبايل في حاجة؟

أخرجتني جملته من قلب عاصفة نفسي، فرفعت عيني نحو وجهه القسيم المنهك.. ونظراته الغاضبة في وقاحة نحو وجهي.. أعاد إصبعي الوسطى نظارتي إلى موضعها فوق أنفي وقطرات صغيرة بدأت تنبت فوق سوالفي البيضاء.

ـ لا ولا حاجة.. ده سامسونج ده؟

ـ لا مش سامسونج.. لو محتاجه حضرتك تشوف الماركة بنفسك انا معنديش مشكلة اتفضل.

ثم مد الهاتف نحوي بيده المعروقة وعيناه تنضحان بسحب ساخرة تنتظر ردًا آخر مني كي تمطر فوق رأسي من قطراتها اللاذعة المؤلمة.. اثر السلامة يا عبد البر.. والقِ بنفسك فورا فوق أحضان جريدتك.. اهدأ يا عبد البر واحترم شيبتك، كي لا يهينها ابن جيل «الطويطر» والفيس بوك.

رحت أحدث نفسي بأشياء لا أفهم لها كنهًا، وبشفرات لا أعرف مفاتيحها وأنا أصب جام سخطي على خبر بتذيل الجريدة عن شاب اخترع جهازا ينقل الصور من الهواتف الذكية إلى الهواء فتصبح صورا مجسمة ثلاثية الأبعاد.. عليكم لعنات الله وغضبه.. ألا تخترعون جهازًا يحول الراتب الضئيل إلى راتب يليق بمدرس أول لغة عربية قضى في التعليم خمسة وثلاثين عامًا، يخرج شباب ليهزأوا منه ويهينوه في شيبته؟!

عيناي تخونانِني وتختلسان النظرات إليه لتجد عينيه تهاجمان سطور جريدتي في وقاحة.. وشبح ابتسامة ساخرة يسقط فوق عنوان أحمر كبير.. رئيس الوزراء الخبير المكير تمخض في مؤتمر صحفي فولد فأرًا.. ما زلت أذكر كلماته التي نقلها الصحفي المبجل ليحولها إلى بنط أحمر كبير في جريدة تلف في بقاياها حبات الفلافل المقلية في زيت التموين المعاد تصفيته.

لن تنبطح بلادنا يومًا

رحت أتخيل سعادة رئيس الوزراء في حلته الأنيقة الفاخرة وأزرار أكمامه الذهبية، وهو يحتدُّ على صحفي أجنبي بائس ناعتًا كل ما تحل به البلاد من فاقات بالمؤامرة التي تهدف إلى تركيعنا وانبطاحنا.. ورأيته والزبد يطير من فمه الواسع حانقا على من يريدون لبلادنا الشر.. وأن توجيهات سيادة الرئيس لنا هي..

لا تلتفتوا إلى مؤامرات الانبطاح

ـ والله رئيس الوزواء ده بيهلكني من الضحك.

قالها ساخرا في خفوت.. فالتفت في حدة نحو العيون الصفيقة الوقحة التي سمحت لنفسها أن تقتحم أسوار خيالاتي وأفكاري.. لأجده يحدق في شاشة محموله الملونة على صورة لرئيس الوزراء وهو يرفع قبضته الضخمة في وجه كاميرات المصورين.. وعنوان أحمر تحت الصورة يردد..

لن ننبطح أمام خطط التخريب

رفع عينيه من جديد نحو وجهي ليضبطني محدقا في شاشة هاتفه.. استعد يا عبد البر لمعركة كلامية قد تطال كرامتك وتاريخك العريق في أروقة التربية والتعليم.

صوت (تفريغ الهواء الناتج عن فتح الباب) هكذا أخبرني مدرس العلوم أمس.. وهكذا يعلمني من داخل الوحش الأزرق أنه قرر أن يلفظ قليلا من فرائسه المتهالكة ليبتلع الجديد منهم.. وعينا الشاب المنهكتان ترتفعان نحو سيدة عجوز قرر الوحش أن يلتهمها على سبيل أن (الدهن في العتاقي).

ـ تعالي يا ماما اقعدي.. أنا نازل الجاية.

ثم نهض وهو يوميني بنظرة لم أُرمَ بها في تاريخ حياتي الطويل.. نظرة

ألقت في قلبي الملايين من كلمات السخرية المزينة بعلامة الـ(#) الزرقاء..
نظرات جعلتني أنظر إلى قلبي الذي أنهكته الخطوات فأنبطح مع المنبطحين..
نظرات لم تخفِ آثار خطواتها الثقيلة من فوق رمال روحي الرمادية القاحلة..
حتى عندما أولاني ظهره ووقف مستعدا على ثغر الوحش كي يلقي به مع الملقين.







مسعد زهران

خمسة أعوام خلف المقود ليست بالأمر الهين.
الرقم نفسه يبعث على الدهشة.. الدهشة من أنه مر كالطيف فما عدت أتذكر منه إلا البداية..
البداية التي كانت حالمة مثل القصص الرومانسية.. كما ترى فريد شوقي في أفلامه المتشابهة يجلس خلف مقود التاكسي بهندامه المرتب وشعره المدهون بأقوى أنواع الفازلين.. يدخن سجائره اللاكي سترايك ذات الفلتر الملون.. ويدير بيده الضخمة مفتاح العداد مطالبًا الست هانم بالبنديرة.
البداية التي كانت حالمة مثل أفلام أنور وجدي وهنري بركات.. مسعد المكافح.. الشاب الثلاثيني الذي أنهى حياته العسكرية متأخرا عن أقرانه بستة أعوام لأنه كان مصرا على فقد الدفعة.. الذي رفض أن يعمل سائقًا خصوصيًا لسيادة اللواء المبجل وزوجته الهانم ذات الحجاب المعقوف إلى الخلف والأصباغ المبهرجة.. والبهوات الصغار الذين تربوا منذ رضاعتهم على أن بابا اللواء رجل مهم وأن العالم كله خدامه.. مسعد الذي طلب من الله فقط أن يكون له بيت صغير وزوجة مطيعة وأبناء أبرار يريحونه من شقاء الدنيا عندما تغدر به رياحها الموسمية في خريف عمره.
البداية التي جاءت مع سيارة بيضاء ذات أشرطة سوداء رفيعة على جوانبها.. وعداد إلكتروني يركض بداخله حصان أزرق كلما ركض حصانه

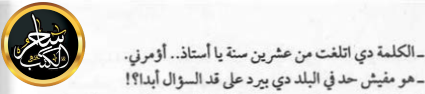
أمام السيارة الجديدة موديل ٢٠١٠.. ومقاعد مريحة.. وتكييف بارد يقيه حر أغسطس الذي اصطبغ بصبغة خليجية لا شك فيها.. والوردية الليلية المريحة في شوارع يحفظها كما يحفظ سورة الفلق.. شوارع محبوبته الأولى. المعادي..

البداية جاءت.. ومرت.. وأكلت بقراضها ثلاث سنوات من عمري الذي شارف على الأربعين وفقرتين من عمودي الفقري المنحني.. وسكر في الدم يرتفع إلى عنان السماء إذا طاوعت نفسي بقطعة بسبوسة من عربة (سلام) الرابضة في الجانب الفقير من محطة المعادي.

قليلون هم من يعرفون أن محطة مترو المعادي لها جانبان.. جانب ابن ناس مهندم.. نظيف.. يمتلئ بفروع البنوك والبنايات ذات المداخل المكنوسة البراقة المعبقة برائحة الديتول.. التي يجلس أمامها بوابون يتظاهرون بأنهم مأصلون في شوارع المعادي منذ أن نزحوا من قراهم ذات البيوت الطينية والشوارع المعفرة.. ومقاهي فاخرة تتراص على جانبي شارع تسعة بإضاءاتها الخافتة ودخان الشيشة ذي الروائح الذكية.. ومكتبة يتوافد عليها أولاد الذوات وأولاد نصف الذوات الذين يظنون أن القراءة هي الضلع المفقود في تحويلهم إلى «ذوات/ مُثقفين».. ونصف آخر يعج بسيارات الالترامكو الخالية من النوافذ بسائقيها المتعاطين لكل صنوف ما يمكن تعاطيه.. ومحلات قطع غيار السيارات ذات البائعين نافذي الصبر ومقاهي العرب التي تمنح جميع من سبقوا مرتعًا لسحب أنفاس المعسل الرديء والشاي المصبوب في أكواب متسخة.

أقف بسيارتي الذي ذهب لون أشرطتها السوداء.. وأصيبت بصدمتين جرحتا كرامتها المعدنية وتركتا بها أثرا دائما في جانبها الأيمن.. أنتظر زبونًا لا يعرف في المعادي إلا محطات المترو وشارع النصر المزدحم.. زبونًا يبحث عن سائق تاكسي خبر المعادي وحفظها وعرفها حتى أصبح كائنا (معاديًا) متأصلا.

- فاضي يا أسطى؟



ـ الكلمة دي اتلغت من عشرين سنة يا أستاذ.. أؤمرني.

ـ هو مفيش حد في البلد دي بيرد على قد السؤال أبدا؟!

ثم مد يده في جيب قميصه الكاروهات الواسع.. وأخرج ورقة صغيرة راح يفضها ليقرأ ما دوّن فيها.

لماذا لا أمارس هوايتي في كشف الغطاء عن بني البشر معلقًا على كل صغيرة وكبيرة فيه كعادة كل سائقي التاكسي المتمرسين؟

لأنه بلا غطاء يستر أي شيء.

جسد لا بالنحيل ولا بالسمين.. بشرة تميل إلى السمرة.. بنطال جينز بسيط وحقيبة صغيرة يعلقها فوق كتفه.. ذقنه نابتة كموضة هذه الأيام الغابرة.

ـ شارع الزهور.. تعرفه؟

ـ رايح فين في شارع الزهور؟

ـ عمارة ٦٤.

ـ عند اسماعيل الصعيدي.. هاخد عشرين جنيه.

مال برأسه نحو تابلوه السيارة ولمحت ابتسامة ساخرة على وجهه حين لمح هاتفي المحمول الذي أحكمت وثاقه بسلسلة معدنية في عصا ناقل السرعات.

ـ مش في عداد جوة التاكسي باين؟

ـ بص يا بيه.. أنا جت لك وش عشان استفتاحنا يبقى أبيض كدا بالصلاة ع النبي.. أنا ممكن أقول لك اركب ع العداد واقعد ألففك في المعادي ساعة لحد ما اوصلك وعدادك يعدي الثلاثين جنيه.. وهتدفعهم ومش هتفتح بقك.. بس انت شكلك ابن ناس وانا مش عايز اخش معاك في مشاكل.. هتدفع العشرين جنيه ولا تشوف غيري وربنا هو الرزاق لا مؤاخذة.

بلا أي كلمة إضافية فتح باب السيارة الخلفي، وجلس مغلقا الباب خلفه مريحا حقيبته فوق الفرش الجلدي الجديد.. أكره حقائب الزبائن عندما تلوث الفرش الذي حصل فيه أحمد السروجي على ألف جنيه كي يجعله مناسبا لمقاس سيارتي.

استدرت حول مقدمة السيارة وأنا أتلو سورة الفلق أمام أعين رفقاء المحطة البارزة حسدًا وحقدًا، علي مسعد (اللي دايما بالزباين مسعد).. ما لي أنا وأنكم لا تجيدون حفظ شوارع المعادي أو تنظيف سياراتكم من الأتربة والأوحال.. ما لي أنا وأنكم مواظبون على أكل الفلافل صباحا فوق تابلوه السيارة حتى يلوث الخس والطحينة فرشكم الرديء كما لوث ما بين أسنانكم التي أفسدها الحشيش وتدخين السجائر المحلية!

انطلقتُ أتَّخذ أقصر الطرق الممكنة لأثبت مهارتي للأخ الزبون.. وحانت مني التفاتة إلى المرآة فوقعت عيناي عليه.. عيناه تائهتان في أشجار المعادي الوارفة وسكانها الذين يلمعون من النظافة.. نظافة قد لا تجدها خارج المعادي.. نظافة تدل على أن صابونهم الذي يستحمون به كل صباح ليس مثل صابوننا العادي.. صابونًا يغسل الوجوه والأرواح والذمم كذلك.

صابون المعادي ينظف أكثر.. للمعان أكثر.. ولأرواح أكثر نظافة.

ـ سيجارة يا باشا.

ـ شكرا ما بغيرش.

ـ طب ما تغير المرة دي عشان خاطرنا.

التفت ناحيتي للمرة الأولى منذ أن تحركنا.. لمحت في المرآة نظرته الحادة نحو يدي الممدودة بسيجارة مستوردة بريطانية الصنع.. واخترقت سلام أذني كلامته الحادة كنظرته.

ـ قولت لك انا ما بغيرش السجاير.. خليك في طريقك لحد ما تنزلني قدام ٦٤ شارع الزهور.. يا إما تنزلني هنا.

ـ قلبك أبيض.. بلاش منها السيجارة.

ثم أعدت يدي الممدودة إلى فمي لتستقر السيجارة بين شفتي تتبعها قداحة راحت تعكر مزاجي مثل ما تفعل كل صباح.

تك.. تك.. تك

رحت ألعنها وألعن الليلة التي ابتعتها فيها بعشرين جنيها ـ لزوم الوجاهة ـ من داخل محطة بنزين توتال القابعة كالواحة فوق طريق الأوتوستراد.

تك.. تك.. تك

- ده انتي ولاعة بنت مرة.. والنبي يا بيه شوفها كدا معلش.

ثم ناولته يدي بالقداحة فتناولها.. سعيدا رحت أنظر له في المرآة، وهو يحاول إصلاحها كأنها التقط مني طعمًا سمح لي أن أصطاد الكلمات من فمه المغلق.

- لا دي خلاص كدا..

- ولاعات غالية عالفاضي يا بيه.. ده انا قعدت بالولاعة ام جنيه ونص خمس شهور وتفضى واملاها تاني لحد ما واحد ابن حرام نتشها مني في التاكسي هنا.. ولما قولت انضف ياض يا مسعد وهات حاجة غالية رحت جبتها من البنزيمة اللي على الأوتوستراد بعشرين جنيه على بعض ومن ساعتها وهي مغلبة أمي.

ثم ضغطت بإصبعي قداحة السيارة لتعود إليّ متوهجة بعد خمس ثوان.. ورحت أشعل السيجارة وأنا أتلذَّذ بسحب دخانها الخالي من بواقي (كرفة) الغاز المنبعث من القداحة الأخرى.. ورحت أكمل وردية مراقبتي لأخينا القابع في المقعد الخلفي ينظر في شاشة محموله المتطور.

- ده سامسونج ولا أبل يا بيه؟

- لا ده ولا ده.. هو احنا مش كدا وصلنا؟

نظرت أمامي لأجد تقاطع شارع الزهور مع شارع الأشجار.. وإسماعيل القابع فوق دكته الخشبية التي ورثها عن من كان قبله في هذه البناية الراسخة كأشجار المعادي العتيقة.

- وانت عرفت منين يا باشا ان ده الزهور.. لا في علامة ولا في..

أشار إليّ بشاشة محموله المضيئة بضوء خافت مراقصًا الجهاز في يده..

- العصفورة قالت لي.. على جنب بقى.. خد صحيح اللي انت طلبته اهو.

ناولني العشرين جنيها.. فأوقفت السيارة بفرملة عنيفة أخرجت فيها غضبي وثورتي من الإخوة الألمعية الذين يستخدمون محمولاتهم المتطورة

في معرفة العناوين.. لماذا لا يتركون العمل لأصحابه ويقبع كل منهم في مقعده يراقب الطريق أو يبادل السائق المنكفئ على مقعده أطراف الحديث، بدلا من التحذلق والبحث عن العناوين على شاشات محمولاتهم اللعينة؟!

هبط الأخ من السيارة وأغلق الباب في هدوء.. فأطلقت لها عنان الرحيل وأنا أقلب العشرين جنيها في كف يدي.. ورقة خضراء حقيرة تسمح للجميع أن يقاطعني أو يخاطبني بتلك الطريقة التي تقطع أواصل حروفي وتجعلني أبدو كالأبله.. ورقة خضراء لولا الحاجة إليها لألقيت بذلك المتحذلق فوق قارعة الطريق وركلته حتى طلب مني السماح.

ورقة خضراء حقيرة هي ثمن الولاعة الخربة التي لم يعدها لي قبل أن يهبط من سيارتي!

* * *





إسماعيل جمعة

عشرة أعوام وأنا هنا.. أجلس على عتبة الباب في العمارة رقم ٦٤ شارع الزهور بالمعادي..

أرتدي جلبابي الواسع المريح فوق كلسوني القطني الذي يصنع الأمان في وسط رياح ديسمبر الغادرة.. جلبابي الذي أرغمت على فراقه عشرة أعوام حتى أنهيت الإعدادية.. جلبابي الذي فارقته لملابس الأفندية.. أكره ملابس الأفندية بنناطيلهم الضيقة وقمصانهم الملونة بألوان الشجر والحجر.. أعتمر لبدة صوفية تحمي رأسي الأصلع من نفخات السيد طوبة عديم الرحمة.

كوب الشاي الثقيل المخلوط بخمس ملاعق من السكر الخشن المفتخر.. جريدة الأهرام تلتصق بيدي أركز بعيني على عناوينها الحمراء المدوية.. ثم أسرح بعيني في علامة النسر الملصقة فوق زجاج سيارة اللواء السابق (فهمي الشناوي).. وأترحم «ممصمصا» شفتيَّ على الزمن الذي أعطى ثم سلب.. أنهر طفلا صغيرا من دود الأرض، راح يعبث بيلف عجلات سيارة بلدياتي الأستاذ (بدير العمدة) المحامي.. السيارة خضراء اللون كعود قصب ناضج.. وأدندن بصوت خفيض موالاً حزينا لمعشوقي الأول (عبده الإسكندراني).. الرجل الذي أكل الأفندية حقه لأنه لم يخلع جلبابه ويربي سوالفه مثلهم!

عصفور ضعيف الجناح والدنيا غدرت بيه



رماه عليا الهوى وشكاني مااللي فيه
صعب عليا وخدته لا جل اني انا اربيه
قلبي الحنين جعلته عش يسكن فيه

سيارة أجرة سوداء قديمة تقف أمام البناية.. ويهبط منها شاب يرتدي ملابس الأفندية.. جينز أزرق وقميص مقلم.. ذقنه نابتة كأنها خرج من الحبس لتوه.. يحمل حقيبة على ظهره من التي يحملها الشباب الرقيع الذي يملأ شوارع المعادي.

اقترب الشاب يمشي في هدوء وعيناه تتلفتان يمينا ويسارا كأنها يفحص الشارع برواده.. عيناه حائرتان لا تستقران في اتجاه.. وأنا أكره الأفندية ذوي العيون المتفحصة الملتفة.. العيون التي كأنها تتفحصني أنا شخصيا.. اقترب في بجاحة وأراح حقيبته جواري على الدكة في صفاقة.. عندما جَرُؤت ذات الأربع التي تزوجتها في غفلة مني أن تضع حقيبة خضار على الدكة الخشبية.. نامت مصابة بلكمة في ذقنها وزرقة في فخذها الشبيه بجذع شجرة جميز عجوز..

ـ سلام عليكم.. دي عمارة ٦٤؟

ـ اؤمر.

حدق بوجهي لحظات «مسبهلاً».. وأنا أكره الأفندية ذوي العيون «المسبهلة».. ثم نظر إلى لوحة معدنية زرقاء معلقة فوق رأسي منذ أن حططت رحالي هنا، وأنا أحمل السبت المصنوع من الجريد والبهجة القماشية.. ثم أعاد حمل حقيبته وأدار ظهره العريض لي واتجه نحو باب العمارة

ـ إنت يا جدع انت.. يا افندي.. رايح فين؟

تركني أنادي وأزمجر من بين أسناني ناعتا إياه بكل ما أعرفه من قاموس شتائم الأفندية أمثاله.. أجز على أسناني كاتمًا صوتي الخشن حتى لا تصل نغماته الجارحة إلى أذن مدام (عفاف) القاطنة بشقتها الأرضية الرطبة.. فتصفني متقززة كأنها داست لتوها صرصورا عملاقا بقدمها الحافية.

(إنت بقيت سوقي أوي يا اسماعيل.. عيب واحد مثقف زيك ومعاه اعدادية يقول الألفاظ الديكادو دي).

ثم تلحق كلامها بشتيمة فرنسية.. فيصرخ عقلي الصعيدي (ياابوووي) وكأنني سمعت موالا للريس متقال!

أرحت كوب الشاي فوق الدكة الخشبية، ونهضت لافحا جلبابي متصنعًا الصرامة والغضب.. ولحقت به قابضًا بكلاباتي اليدوية الخشنة فوق ذراعه.. جاذبا يده ومجبرا وجهه على الالتفات نحوي.

ـ لما أقول لك رايح فين ترد عليا.

ـ هو انت كنت رديت عليا؟

ـ إنت مجنون ولا مسطول ولا كيف هيئة امك؟

سحب ذراعه غاضبًا وأخرج من جيبه ورقة فردها في وجهي فتناولتها وأنا أقبض على ذراعه الأخرى.

ـ إيه دي.. أعمل انا بيها إيه دي؟

ـ دي صورة من عقد إيجار شقة رقم ٧ في الدور الثالث.. أظن العنوان واضح.. الاسم بقى اللي تحت ده يبقى انا.. بتعرف تقرا ولا نجيب حد يقرا لك؟

ـ وريني بطاقتك.

ـ اللهم طولك يا روح.

ثم أخرج بطاقة رقم قومي وضعها في يدي وسحب العقد.. وعلى وجهه تعبيرات تنبئ بمستقبل مليء بالصياح والويلات والتجاهل وافتعال المشكلات.. وما أكثرهم.. الحقيقة أن أي ساكن يستطيع صنع المشكلات وطبخها طبخًا معي مقابل أي شيء.. إن مدام فوزية ساكنة الطابق الرابع تصنع الملوخية على عرقي الذي يتصبب خجلاً من كلماتها القوية التي تمسح بكرامتي واجهة البناية الرخامية المُجددة.

ـ إتفضل يا بيه.. لو احتجت حاجة انا في الخدمة.

ـ حد ينظف الشقة.

نفس النظرات الحادة القوية وكأنه ولد بها.. نفس الطريقة في تحرير ذراعه من قبضة يدي التي لم ترتخِ عن ذراعه رغم تغير الوضع.

كاد يرحل.. لكنه أخرج سيجارة من علبة محلية الصنع.. وضعها بين شفتيه داكنتي اللون وأخرج قداحة من نوع ليس برخيص.

تك.. تك.. تك

القداحة لا تستجيب.. يقلبها ويمرر أصابعه على أحجارها.. لكنها تأبى.

عاد بظهره وأعاد رأسه إلى الوراء كأنما يهمس لي في طابور خدمة.

ـ معاك ولعة يا بلدينا؟

وأنا أكره الأفندية عندما يخاطبونني بهذه الكلمة!

أخرجت قداحتي مسرعًا من جيب الجلباب.. وأشعلت سيجارته المحلية المعوجة متغاضيا عن كلمة «بلدينا».

ـ شكرا.. ما نتحرمش.

ثم نفث دخان سيجارته ناظرًا إليّ من زاوية وجهه الأسمر.

ـ ما تنساش.. إبعت لي حد ينضف الشقة.. النهارده.. النهارده ها..

ثم عاد إلى طريقه نحو البوابة صاعدًا درجات السلم الرخامي قفزًا كالأرانب.

وأنا أكره الأفندية الذين يقفزون درجات السلم بصحتهم المتوهجة بنار الشباب أمام عينيَّ الرماديتين المنهكتين ليزيدونهما إنهاكًا.

ـ أنا اصطبحت بوش مين النهارده.. أيوة لزمن ام اربعة واربعين اللي انا متجوزها.. النصايب دي ما تجيش الا من بوزها.

ثم ألقيت بجسدي فوق الأريكة الخشبية.

* * *



ريم طاهر

أشكو إليك ابتعاد حلمي.. واقتراب همي.. وانسداد كل السبل إلى الخلاص.
لذا يا حبيبي القادم من بعدي.
لا تظن أنني هربت منك..
بل هربت إليك.

أحكمت إغلاق «البلوفر» الصوفي.. وخطوت بقدمي اليمنى فوق سور سطح المنزل..
أرفع رأسي إلى السماء طالبة سماحا وغفرانا أعرف أنني قد لا أحصل عليهما.. أغمض عينيَّ كي لا تلمحان السيارات العابرة في شارعنا الهادئ صباحًا..
أحاول ترويض أفكاري وخيالاتي المريضة عن مصيري بعد الارتطام المدوي.. مصير أمي الفاضلة.. الأرملة المسنة عندما تتلقف أذناها أخبار فعلتي الشنعاء.
أفتح أذني لأسمع هديل حمامتين تغازلان بعضهما في همس سحري.. ذكر يشدو بألحان من «القرقرة» و«الهرهرة» وأنثى بيضاء كسحابة ربيعية.. أنثى وجدت ذكرها فوق سطح بناية في أطراف المعادي.. وأنثى تفارق ذكرًا لم تجده يومًا على رصيف تلك البناية.

أفتح أنفي لأشم رائحة الصباح الشتوي المحملة برائحة ريحان زرعه أحدهم يومًا في قلب السور الحجري.. وأستنشق هواءً يسبغ روحي المضطربة بشيء من السكينة.

صوت بداخلي يخبرني أنني ما زلت أنتمي لهنا.. لم يحن بعد موعد رحيلي.. صوت غريب يقتحم خلوتي.

تك.. تك.. تك

ما هذا.. من جرُؤ على القفز فوق أسوار روحي؟!

- ولعي بقى يا بنت الهرمة.. هو مفيش حاجة بقت سليمة في البلد دي؟

تك.. تك.. تك

أفتح عيني وقدمي اليسرى لا تزال فوق المقعد الخشبي الذي كنت أستعمله يوما كمفرغ لأفكاري المريضة في ليالي الصيف.. لتقع عيناي عليه.

- إنت بتعمل ايه هنا؟

- بشرب سيجارة.. بس شكلها مش ناوية تولع.

- ودخلت هنا ازاي أصلا؟

ببساطة كأنه يجيب على سؤال في امتحان القبول بروضة أطفال.

- من الباب طبعا.. آه صحيح لو سمحتي لي يعني.. إنتي عبيطة وساذجة أوي.

اتسعت عيناي واختل توازن كرامتي حتى أوشكت على أن أقفز فوقه ملقية إياه على أرض السطح كأبطال مصارعة المحترفين.

- إنت ازاي تسمح لـ..

- في حد عايز ينتحر يسيب باب السطح مفتوح.. طيب في حد عايز ينتحر يقف ساعة فوق الكرسي رجل ورجل زي تماثيل يوليوس قيصر.. بلاش.. أنا راضي ذمتك.. في حد عايز ينتحر يكتب دي..

وأشار إليّ بورقة مطوية.. ورقة أعلم ما فيها لأنني خططته بيدي هذا الصباح قبل أن أعزم على وضع حد لمعاناتي.

تك.. تك.. تك

ـ طب وربنا ما انا شاربها.. دي ولاعة بنت.. ما علينا.. كنا بنقول ايه.

ـ كنا بنقول.. إيه ده.. إنت ازاي تسمح لنفسك تقرا حاجة خاصة زي دي.

ـ هو انتي مش بتنتحري يا بنت الحلال.. ودي رسالة انتحار زي بتاعت الأجانب كدا.. يعني الورقة دي ما بقتش بتاعتك بعد ما كتبتيها؟ بقت ملكية عامة.

ونفث من صدره أنفاسا حارقة إلى السماء كأنما يزفر روحه معها.. كيف لم أنتبه لشفتيه المضمومتين وذقنه النابتة كحدائق قصور الأشباح.

هبطت غاضبة من فوق مقعدي الذي أوشك على التحطم من وطأة غضبتي الهادرة.. غضبتي التي أقسمت أن أنهيها على الأقل بقضم حنجرته أو تحطيم رأسه فوق السور الحجري.

ـ تخيلي معايا واحدة بتنتحر كاتبة كلام زي ده.. مللت من استجداء عطفكم واستدرار اهتمامكم.. كلكم لا تهتمون ولا تدركون.. لذا سأترك لكم ذكرى لن تنسوها أبدًا.. أن أن أن ااان.. إيه الأفورة دي؟

ـ هات الورقة دي.. هات بقول لك.

ـ أهي اتفضلي.

ثم منحني الورقة بمنتهى البساطة.. والتفت مواجهًا الشارع.. واضعًا كفه المعروقة طويلة الأصابع أسفل ذقنه.

ـ إنت مين.. أنا أول مرة اشوفك هنا.. إنت عديت من اسماعيل البواب ازاي؟

واجهني صمته وصوت أنفاسه اللاهثة من أثر تدخين طويل لم يضف له عامودًا جديدا.. سيجارته غير المشتعلة التي ألقى بها أرضا ودهسها بحذاء أسود لا يلمع.. يعلوه بنطال من الجينز الأزرق.. يكسو جسدًا متوسطًا.. لا نحيلا ولا سمينًا.

ثم هكذا ببساطة.. وكما أنهى حياة سيجارته البريئة قبل أن تبدأ.. التفت نحوي وحدجني بنظرة مطولة لا تحمل أي معان.. ثم اتجه بهدوء إلى الباب الخشبي المهترئ وغادر..

- إنت يا.. يا.. مين ده؟

لماذا جاء هنا.. والآن.. لماذا الآن؟

هل أرسل الله لي علامة أخرى كي يخبرني أنني ما زلت أنتمي إلى هنا.. أم أن عقلي ما زال تائها فوق سور السطح الحجري عاقدًا مع قلبي مباحثات مطولة ليقنعه أن العودة هي الخيار الأسلم لإنهاء الأزمة.

راحت عيناي تسبحان نحو المقعد القديم والسور الحجري وزوج الحمام الحالم في دنيا الغرام،

صداع كثيف يغزو رأسي.. تفكير عميق يبدو أنني سأقضي فيه ليالي طويلة فوق وسادتي، وسؤالي الذي سقط أمام عيني كلوحة إعلانات ألبوم حماقي فوق كوبري أكتوبر.

من هذا؟!

❋ ❋ ❋





فهمي الشناوي

لماذا اخترع أحدهم النوافذ؟

سؤال بسيط.. يدور في رأسي المليء بعشرات الأسئلة والتساؤلات الجدلية التي لا أجد لها إجابات وافية.

أستيقظ صباحًا لأجد ذلك الكائن المدعو بالشمس يقتحم عليَّ خلوتي.. ويطلق أشعته البرتقالية في عموم الغرفة ليجبرني على فتح عيني والاستيقاظ.. الاستيقاظ إلى هدف لم يعد متاحا.. إلى سبيل لم يعد مفتوحا.

اللواء فهمي الشناوي.. الرجل الذي لم تجبره أعتى رياح التغيير أن يفعل شيئا لا يريده.. الرجل الذي لم تزحزحه الاضطرابات والعمليات الإرهابية والمظاهرات خطوة واحدة.. فكان يعود مع كل سقطة أقوى مما كان.. يجبره ذلك الكائن البرتقالي المتوهج على الاستيقاظ!

ألقي بنظرة خاطفة على المنبه النحاسي المستقر فوق سطح الكومود الخشبي العتيق.. وتسرح عيناي في عقرب الثواني الذي أفقدته أشعة الشمس توهجه الفوسفوري.. ثم تتحرك نحو مرآة التسريحة المذهبة.. فأرفع نصفي المستريح فوق الوسادة القطنية الصلبة مصوبًا عينيَّ نحو المرآة المصقولة.

وجه منهك مرهق.. وسائد سوداء منتفخة تستقر تحت عيون رمادية أحمر بياضها.. وشعيرات بيضاء متناثرة فوق رأس يلمع بعرق بارد.

عرق في ديسمبر!

في ليلة شتوية وصباح شتوي مشمس ما زال العرق يغزو رأسي، ويجتاح صلعتي المستقرة وسط جزيرتين من الشعر الأبيض!

شعر كان يصبغ بعناية فائقة.. ويصفف بأفخم أنواع الكريم المنعم ليصل الجزيرتين المتباعدتين بجسور من القوة والحزم.. وشارب رفيع منمق كان يومًا عنوانًا لصرامة لا يفت عزمها، أين ذهب كل هذا يا فهمي؟ انسحق تحت نعال أحذية رياضية رخيصة.. ومات متأثرا بجراحه في معركة غير متكافئة.. ارتحل إلى أقاصي جنبات عقلك هناك ليبقى مؤرقا لنومك المضطرب.

أنهض رافعًا جسدي بصعوبة تزيدها أثقال خشونة الركبتين والتهاب المفاصل.. أمسك بعلبة أقراص أعطانيها طبيب ما لتشفي من عرض ما.. طبيب منحني ابتسامة صفراء متشفية عندما أخبرني أن قلبي الذي قُدَّ من حجر قد سقطت عليه أمطار التغيير هو الآخر فأصبح يفوت دقة أو دقتين صارخا طالبا الرحمة.

كلكم تتشفون فيّ.. بنفس العزم والقوة الذين كنتم ترهبونني بهما منذ سنوات قليلة.. منذ أن كانت خطواتي تزلزل درجات سلم البناية الرخامية فوق رأس ذلك المداهن المنافق إسماعيل.. منذ أن كان يمسح زجاج سيارتي بكم جلبابه القذر فأنهره وألقي له بورقة كتب عليها الرقم ٢٥.. رقم قذر كالأتربة التي لوثت كم جلبابه.. فيتلقفها كأنها ماسة نادرة من جواهر التاج الملكي.. الورقة التي استبدلت بعملة معدنية مثقوبة.. تحولت إلى عملة معدنية حقيرة لا ترى بالعين المجردة.. وتحولت معها خطواتي المتقدة حزما وقوة إلى خطوات عجوز خانع ينتظر ملك الموت أن يشرفه بزيارة قريبة.

اليوم إسماعيل لا يعيرني انتباها.. وإن أعارني رأيت تلك النظرة المتشفية الساخرة في عينه الضيقة الحقيرة.. لكنه يظن أني لم أعد كما كنت.. واهم هو إذا ظن أن الأسد لو جلس في ركن القفص سيفقد أنيابه.. إن أنيابي ليست في فمي فقط.. بل في فم كل من كان يوما شبلا من أشبالي الأحياء.. أشبال تعرف كيف تصير أسودا.. وتعرف كيف تمد يدها للأسد العجوز يوما بقطعة لحم كي ينبش فيها بأنيابه.

اليوم سيعرف إسماعيل.. وسيعرف هؤلاء المعاتيه كيف أن فهمي الشناوي ما زال أسدا.. رغم الخشونة التي غزت ركبتيه، ورغم قلبه الذي صار ورقة في مهب ريح شتوية عاتية.. رغم أذنه التي صارت تفوت أحرفا لا تسمعها ورغم رئته التي صارت تصدر أصواتا رنانة كصندوق المفاتيح.. أنا اللواء فهمي الشناوي.. فلا يظن هو أو أحد من هؤلاء المعاتيه أن كلمة متقاعد التي حشرت نفسها بين اسمي ولقبي قد تنقص منها شيئًا.

أرتدي حلتي السوداء وأفرج بين ضفتي ياقة قميصي لأترك قليلا من الهواء ينفذ إلى صدري اليابس عله يمنحه بعض السكينة والبرود.. وأضع نظارتي الشمسية العريضة ماركة (ريبان).. وأصفف الخصلات البيضاء الملاصقة لصلعتي التي جففت من عرق بارد ما زال يسيل عليها.. وأفرد قامتي ضاغطا على ركبتي الخشنتين وفقرات ظهري المتوعكة.. فيصرخان طلبا لرحمة لم أمنحها لأحد يوما إلا عندما يفعل ما أريده أنا.. أنا وأنا فقط.

أهبط السلم ضاربا بكعب حذائي الدرجات الرخامية المصقولة بعناية.. ثلاثة طوابق من الخبطات الرنانة تمنحني ثقة لم أتصور يوما أن أفقدها.. ثقة انسحقت مع من انسحقوا وتاهوا في قلب معمعة أعطوها لقبا مائعا حتى يمنحوها مجدًا لم يكن يوما لها..

ثورة!

إسماعيل يجلس مربعا ساقيه فوق دكته الخشبية.. مرتديا نظارة طبية رخيصة يطالع جريدة قديمة محاولا منح نفسه سمت الفلاح الفصيح.

ـ إسماعيل.

ـ صباح الخير يا معالي الباشا.

ينهض ملقيا بجريدته ونظارته ليسقطا متراكمين فوق بعضهما.. عيناه تحملان النظرة الوقحة إياها.

ـ أنا مين يا اسماعيل؟

ـ إسم الله على مقامك يا باشا.. إنت فهمي باشا الشناوي.

ـ اللواء فهمي الشناوي يا إسماعيل.. عارف يعني إيه لوا يا اسماعيل؟

وجهي المختفي خلف زجاج النظارة الأسود.. ونبرة صوتي القادمة من أعماق أعماق صدري المتحشرج وحنجرتي التي قضى عليها التبغ فمنحها خشونة تمزق الأعصاب بلا سكين.

فهمي الشناوي يعود لكم من جديد.

- يعني لما اقول يا اسماعيل ان العربية بتاعتي هي اللي تركن قدام باب العمارة.. يبقى العربية بتاعتي هي اللي تركن قدام باب العمارة.. مش عربية حد تاني يا اسماعيل.

- يا باشا اسم الله على مقامك.. ما هي راكنة قدام باب العمارة اهي.

يكذبني إذن.. ينعتني في سره الآن بالمعتوه عديم التمييز.. يظن أنني لم ألقِ بنظرة خاطفة من النافذة مساء الأمس وصباح اليوم على تلك السيارة الخضراء الحديثة التي يتطابق الخط الفاصل بين بابيها الأمامي والخلفي مع التقاء باب البناية الحديدي.

- إسماعيل.. عربية مين اللي واقفة قدامي هنا؟

- دي عربية الأستاذ بدير المحامي.

- بدير المحامي!

بصقتها عليها من فمي بصقا.. تقيأت عليها قرحًا استقر فوق جدار معدتي وحانت لحظة فراقه منها تقززا.

- إسماعيل.. إوعى تكون فاكرني عشان طلعت معاش اني ما بقتش اللوا فهمي الشناوي.. تبقى مختل الإدراك ومحتاج حاجة تفوقك.. يا اسماعيل انا بتليفون مني ابيتك انت وأهلك واللي خلفوك كلهم بالمحامي بتاعك في لاظوغلي.. فاكر لاظوغلي يا اسماعيل ولا لحقت تنسى.

- مالوش لزوم الكلام ده يا باشا.. جنابك عدي على الأستاذ بدير واتفاهم معاه واتصافوا سوا وانا عبد المأمور.

- إنت اتجننت يا اسماعيل.. ده انت الظاهر محتاج اللي يفوقك.

ورفعت كف يدي ممسكا بتلابيب جلبابه الصعيدي القذر.. كف يدي الذي أحرق وجه أحد مرشحي الرئاسة الحاليين عندما كنت مساعدا لوزير

الداخلية على وشك أن يحولك إلى خرقة بالية يا دود الأرض.

لكن الكماشة ذات الخمسة أصابع لم تكمل ما بدأته.. قبضة قوية قبضت على معصمي.. فمنعت كفي من الأطباق على تلابيب ذلك السافل معدوم الأدب.

- صلي عالنبي يا باشا.

- إيه ده.. إنت ازاي تجرؤ يا حيوان؟

عينان واسعتان تتوسطان وجها قمحيا لذكر في أواسط ثلاثينياته.. ذقن تشبه ذقن هولاء الفتية الملقين بأجسادهم أمام عجلات المدرعات.. قميص واسع يتدلى فوق جسد ممشوق عريض الكتفين.. كيف واتتك الجرأة أن تلتف أصابعك الحقيرة فوق معصمي أنا؟

- لم لسانك انت راجل كبير وانا مش عايز ارد عليك.

ثم أفلت معصمي وعادت يده المعروقة إلى جانبه.. قامته التي قاربت على قامتي في تحدٍّ. كيف يجرؤ أن يضع عينه في عيني.

- إنت مين انت؟ وايه إلى دخلك؟ ساكن وبيأدب الكلب اللي قاعد بيحرس بيته.

- أنا مش كلب يا فهمي باشا.

- إخرس يا حيوان انت.. حسابك معايا بعدين.

نحيت إسماعيل الآن من مدى بصري وتفكيري.. ورحت أتفحص ذلك الكائن أمامي من خلف زجاج نظارتي.. الكائن الذي اقترب مصوبا عينيه الواسعتين فوق عيني لتخترق أشعتها الوقحة زجاج نظارتي الداكن.

- بص يا فهمي بيه.. أنا عارفك كويس وعارف انت كنت إيه وبقيت إيه.. وهاقول لك كلمتين تحطهم نضارة فوق عينيك تشوف بيهم الدنيا احسن.. اللي باقي من كفك صوابعك.. يا تلمهم وتنفع نفسك.. يا تفردهم على خلق الله.. وساعتها.. مش هتلاقي غير..

ثم قطع عبارته وفرد كف يده اليمنى المعروقة واستخدم اليسرى كأنها سكين يقطع اليمنى.. ومنحني ابتسامة ساخرة ساحقة.. ضربة قاضية من

ملاكم متمرس ألقى بحروف مبهمة في وجهي.. جهادي متمرس زرع عبوة مفخخة في قلب كرامتي ففجرها بلا فرصة للنجاة.. ثم تركني مهلهلا متفجرا متناثرا كأشلاء فوق رصيف الشارع!

ـ مين الحيوان ده؟

خرجت متحشرجة خافتة خانعة.

ـ ده جارك الجديد يا فهمي بيه.. في الدور الثالث.

خرجت متشفية ساخرة خبيثة.

التفت نحوه وخلعت نظارتي الشمسية.. ورحت أحدق في وجهه بنظرة خرجت مطلقة شررا كثيفا كأنها نقطة لحام كهربائي فوق سور معدني.. نظرة كانت كفيلة بإبعاد عينه الوقحة عني وألقته جالسا بجسده المتراخي فوق دكته الخشبية القذرة.

كلمات خرجت لا تلوي على شيء.. تهديد ووعيد لا أطلقه إلا من نفسي ولنفسي.. نفسي التي سمحت لي أن أبقى إلى الآن.. كان لا بد أن يأتي ملك الموت يوم خروجي محالا للتقاعد.. كان لا بد أن يأتي قبل أن يلين قلبي وتخشن ركبتي وتتساقط الصبغة السوداء من فوق شعري.. كان لا بد أن يأتي قبل أن يلوي إسماعيل شفتيه عليَّ ويتشاغل عني ساخرا بمقال تافه في جريدة مهترئة.. جريدة كان رئيس تحريرها يبكي كالنساء عندما تقع عيناه علي.. كان لا بد أن يأتي قبل أن يأتي ذلك الوقح إلى هذه البناية.

ـ ألو.. أيوة يا ابني.. أكلم المقدم هشام عبد الرازق.. قل له اللوا فهمي الشناوي.. بخصوص موضوع ضروري جدا جدا وعلى قدر عالي من الأهمية.. التفاصيل.. قوله مسألة أمن قومي.

هل يظن هؤلاء الأوغاد أن الأسد قد مات حتى يتجرأ عليه الذئاب وهم آمنون من العقاب؟!

* * *



عفاف سكر

-الله يرحمك يا بابا.. الله يرحمك ياللي كانت الدنيا معاك زي اسمك.. الله يرحمك ويوصلني ليك بسرعة أوي.. كان نفسي تكون جنبي في الأيام دي.. بس هقول ايه يا بابا.. C'est la vie الـméprisables.

أقف مطولا أمام صورة أبي.. الرجل الذي سماه أبوه سكر لأنه يوم ولادته صرخت جدته فوقية هانم الدرملي بصوتها الحاد العجوز.

(Je veux un peux du sucre)

أريد قليلا من السكر.. وهي ترفع بيديها فنجان الشاي الخزفي المزخرف.. ساعتها فقط هبط جدي الباشا حاملا أبي في يده وعيناه تلمعان فرحا وحبورا.

(C'est le sucre mama)

عشرة أعوام على فراقك يا عمري.. يا رجلي الأول والأخير.. يا من رأيت الدنيا فقط من خلف نظاراتك الشفافة النظيفة دائما.. يا من جلست على طرف فراشك يوم أن جاءك خبر المرض أبكي غير قادرة على إمساك لجام روحي.. كالطفلة بكيت وأنا في الأربعين يا أبي.. رفعت رأسك الشبيهة بسحابة صيفية تعطي بردا وسلاما.

- عفاف.. إوعي يا حبيبتي تعيطي أبدا.. أنا مش فاضل لي كتير صحيح وما عرفتش اسيب لك فلوس تساعدك في الدنيا دي.. بس انا سبت لك ده يا روحي.. bon coeur

يشير بإصبعه المعروق الواهن نحو موضع قلبي.. وتلمع عيناه بدموع لم يذرفها يوما أمامي.. كنت أسمعه يبكيها كمدا وقهرا أمام صورة المرحومة أمي في غرفتها التي لم ينم فيها يوما بعد رحيلها.. يمسك بكف يدي فيحتويني خلف ابتسامته المنهكة.

- إنتي مش لازم تعيطي ma petite.. لازم تكملي في حياتك زي ما انا معودك.. قوية وعنيدة.. إوعي تخلي حد يقول لك تعملي إيه وما تعمليش ايه.. إنتي سيدة قرارك ومصيرك.. فاهمة يا عفاف؟

أومأ برأسي وأنا أحاول أن أعطيه سببا لكي يبتسم.. سببا لأجعل أيامه القليلة الباقية تشبه اسمه.. اسمه الذي كان صفة وطعما لحياة قبل أن يكون اسما./

أجلس أمام نافذتي التي تطل على أوراق شجرة كافور عجوزة.. شجرة ظهرت إلى الحياة قبل حتى أن يصحبنا أبي إلى هنا أنا وأمي.. أربعون عاما منذ أن باع أبي فيللا جدي أمين باشا ليهدمها أحدهم ويبني مكانها بناية من عشرة طوابق يملؤها الغوغاء وحثالة المجتمع ممن منحهم السادات أموالا كي يشتروا بها ألقابا جديدة!

أجلس ممسكة بكوب الشاي الزجاجي.. البقية من عادات أمي الفرنسية الفقيرة القادمة من حي ستان في ضواحي باريس.. اليسارية المتطرفة التي أحبت ابن الإقطاعي السابق وتزوجته رغم كل ما بينهما من فروق في كل شيء.. رغم كل الخلافات والتباعدات التي حولتهما يوما إلى عدوين يعيشان تحت سقف واحد.. رغم كل هذا إلا أنه لم يضربها أو يتعدى يوما عليها في قول أو فعل.. لم يفكر يوما أن يجبرها على شيء ولم يفكر يوما أن يغير رأيها.. كنت أسأله عندما ماتت لماذا لم يفكر يوما أن يعلمها كيف تحب حياة الباشوات.

- بابا.. هو ليه ماما كانت دايما بتقول ان البشوات كلهم كانوا vautour.

يطلق ضحكته الصافية الرائقة متذكرا تشبيه أمي الغريب لكل الإقطاعيين، بأنهم مثل تلك الفصيلة من النسور التي تتغذى على الجيف والرمم والجثث وتشرب من دمائها.

ـ عشان ma petite.. ماما كانت شايفة دايما ان الباشا الإقطاعي بيفضل يحوم حوالين الغلابة لحد ما يقعوا ويفقدوا قوتهم.. وبعدين ينزل هو عليهم ويكبر نفسه من دمهم ولحمهم.

ـ يعني كل الاقطاعيين كانوا كدا يا بابا؟

ـ ماما بس اللي كانت شايفاهم كدا mon cher.

ثم يرتدي نظارته المستديرة الصافية ويمسك بكتابه معلنا بكل صمت أن هذه المناقشة قد انتهت ولا مجال لأن نكملها الآن.. ربما أيضا تناول سيجارة رفيعة وضعها بين شفتيه وأشعلها نافثا سحبا غاضبة من ذكرى كلام أمي القاسي.

تفلت مني ابتسامة باهتة كوجهي الذي بهتت ألوانه من كثرة غسيل الزمن له بكلور صاف.. أتذكر كيف كان أبي عظيما وراقيا.. حنونا وقويا.. مهرجا وجادا.. كيف لم أجد بعده من يستطيع أن يضعني في مكاني لأرى الدنيا من خلف زجاج نظارته.. كيف تحولت من لقب عانس جميلة بنت ناس.. إلى عانس شمطاء متسلطة من طبقة لا تحب التغيير.. إلى عانس عجوز شارفت على الخمسين!

الهاتف المحمول الصغير يصدر نغمات مزعجة.. فأترك كوب الشاي مجيبة في تأفف من قرع أحدهم أجراسه وهو غير مستعد لاستقباله.

ـ ألو.. أيوة أنا مدام عفاف سكر.. oui أنا طلبت فعلا الأوردر ده يجهز.. لا أنا هاجي اخده من المحل.. الساعة اتناشر كويس.. d'accord.

اليوم عيد زواج أبي وأمي.. الاحتفالية الوحيدة التي لم أنسَها يوما أو أهمل فيها.. احتفلنا بها وهي معنا ثم وهي ليست معنا.. ثم وهما ليسا معي.. وسأبقى أحتفل بها حتى أكون معهما فنحتفل بها معا هناك.. في المكان الذي سنلتقي فيه جميعا.

أرتدي ثيابي البسيطة المكوية بعناية.. وأضع البروش الفالصو المرصع بحبات لؤلؤ مزيفة صنعها لي يعقوب صديقي الوحيد كي لا أرتدي بروش أمي الأصلي.. وأخرج من شقتي التي تجاور بوابة المبنى مارة بإسماعيل..

ذلك البواب اللطيف الذي يعرف كيف يعامل أبناء الأصول.. وبجواره تلك الأرملة التي تسكن في الطابق الخامس.. وابنتها الفاتنة.. نعم هي فاتنة تذكرني بنفسي في شبابي عندما كنت طالبة في كلية الآداب.. فقط لو توقفت عن ربط حجاب شعرها على طريقة الدادة نعمة مربيتي النوبية.. وأحجمت عن ارتداء ثياب شبيهة بمهرجي كرنفال ريو.. أمامهم يقف شاب لا أعرفه يضع قدميه على طرف رصيف البناية.. يرتدي حذاءً رياضيا من ماركة لم أسمع عنها من قبل.. هذه الأحذية التي تنتشر في أسواق العتبة ورمسيس ولا تعرف لها نوعا..

يحك ذقنه المشعرة الخفيفة بطرف أصبعه وسيجارة مصرية رديئة الصنع تنام بين أصابع يده المعروقة السمراء.. وبقعتان من القهوة ما زالتا تزينان أطراف قميصه الكاروه الواسع.. يقف هناك مواجهًا فوزية الأرملة ذات الستين عاما مادًا يده لها بوردة.. وردة إلى هذه السيدة! ربما لو منحها كيسا من الأرز أو زجاجة من زيت التموين لكانت أكثر امتنانا له وعرفانا.. ماذا تعرف هذه السيدة الشعبية القادمة من حواري بولاق عن الورود؟!

نظرت بطرف عيني إلى إسماعيل فنهض لافحا جلبابه البني الصوفي ومد الخطى إليّ تاركا صديقنا ذي القميص الكاروه يحني نصف جسده العلوي وهو يرمق صاحبة الحجاب المعقوف بنظرة جانبية ولهاء.

ـ صباح الخير يا مدام عفاف.. أوقف لك تاكسي؟

ـ Merci إسماعيل.. أنا هتمشى شوية المكان مش بعيد.. آه إسماعيل انا افتكرت حاجة حصلت امبارح بالليل وكنت عايزة اسألك عليها..

ـ أؤمريني

خفضت صوتي حتى كدت لا أسمعه وهو يقرب أذنه الكبيرة مني.

ـ إمبارح فتحت الشباك بتاعي اللي على الجنينة.

ـ حضرتك تقصدي المنور؟

ـ إسماعيل.. Je ne répéte pas mon parole.. كلامي مش هقعد اعيد فيه تاني.. أنا زرعت القرنفل والريحان في المكان ده مخصوص عشان

ما يتقالش عليه منور.. مش ده الموضوع.. المهم اني لقيت سلك كدا لونه اسود ماشي من على القرنفل، وطالع لحد فوق.

هرش إسماعيل رأسه في حركة تصيبني بالغثيان حتى أوشكت أن أتقيأ في وجهه ثم قال:

ـ آه.. لزمن حضرتك تقصدي سلك النت بتاع الافندي.

ثم أشار بطرف إصبعه الإبهام ناحية ذلك الشاب الذي نهض مقتربا منا وهو يطفئ سيجارته في كعب حذائه ثم يضعها في كيس ورقي صغير.. يطفئ السيجارة في كعب الحذاء.. Oh mon Dieu.

ـ أنا ماليش دعوة نت ولا نط يا اسماعيل.. أنا ما بحبش أي حاجة تعدي من عند القرنفل بتاعي.. أنا المرة دي بس قطعت السلك ده بالمقص ورميته برة الجنينة.. المرة الجاية يا اسماعيل هقطع لسانك ده بالمقص لو ما قولتش لكل الناس اللي ساكنة هنا اني ما بحبش حاجة تعدي من عند جنينتي.. d'accord.

ـ وانا مالي يا مدام.. أنا عبد المأمور والأستاذ برضه ساكن زيه زيك.

هنا اقترب هذا الشاب حتى أصبح أمامي.. نظرة وقحة متفحصة لا تخرج من ابن ناس اتربى في بيئة صالحة.. وشبح ابتسامة ساخرة بدأ يبعث على شفتيه.

ـ مساء الخير.. معلش انا متأسف انا ما بعرفش اتكلم فرنساوي.. عشان كدا هسأل حضرتك سؤال بسيط أوي.

ـ سؤال ايه؟

ـ حضرتك اللي قصيتي سلك النت الاسود بالمقص؟

ـ أيوه انا.. واحمد ربنا اني سكت لحد كدا.

مسح وجهه بكف يده المعروقة ثم نظر ناحية الطريق زافرا في وقاحة.

ـ يا مدام أيا كان اسمك.. أنا شغلي كله مرتبط بالسلك اللي حضرتك قطعتيه.. حضرتك كنتي خبطتي عليا الأول وسألتيني أو طلبتي مني اشيله وانا كنت اتهببت شيلته بدل العطلة دي

- إيه ده إيه ده.. إنت ازاي تسمح لنفسك انك تتكلم معايا كدا.. أولا انت مشيت السلك ده من جنينتي ودي جريمة انا ما حاسبتكش عليها لسه.. ثانيا انا ما بطلبش يا حضرت.. ده حقي.. ثالثا انت ما تكلمنيش بالأسلوب ده.. الألفاظ الـignoble دي ما تستخدمهاش معايا أبدا.

- وبعدين بقى..

إسماعيل يربت على كتفه محاولا تهدئته ويضرب بكف يده على صدره محاولا تهدئتي.. لولا وجودك يا إسماعيل كنت استخدمت معه كل ما علمته لي أمي من تراثها الذي حفظته من حواري و«عشش» ستان.

- يا مدام لو سمحتي.. دي آخر مرة هقولها لحضرتك.. أنا محتاج الإنترنت جدا في شغلي.. وما بحبش حد يعطل لي شغلي.. وانا ما مشتش السلك فوق الجنينة بتاعتك وكنت حريص أوي اني اثبته بعيد عنها على الأقل بمتر.

- Oh mon Dieu.. وهو متر ده بعيد.. السلك بتاعك ده هيلم تراب.. والتراب لما تيجي عليه المية هينزل طين وقذارة على القرنفل بتاعي.. وانا ما اسمحش بكدا أبدا.

رفع عينه في عيني لأول مرة فرأيته.. رأيت وحشا كاسرا غير آدمي لا يحب النساء المثقفات أولاد الناس مثلي.. نفس النظرة التي رأيتها في وجه ذلك الشاب المنحط وأنا أخرج من الليسيه مع ابنة عمتي تحت حصار دخان الغاز.. كان يشير لنا أن نخرج وفي عينيه تلك النظرة عندما نعتهم بالمخربين.. الذين أفسدوا علينا حياتنا وجعلونا نشم قنابل الغاز ودخان البارود.

- بصي يا مدام.. أنا كنت ذوق معاكي أوي للآخر.. أنا مش فاضي للكلام ده.. أنا راجل عندي شغل.. السلك انا هجيب واحد تاني بدله النهارده وهركبه في نفس المكان عشان ده اللي بيوصل للأوضة اللي بشتغل فيها.. وياريت حضرتك ما تقطعيهوش تاني عشان ما اخدش تصرف مش حلو خالص.. d'accord.

قالها مقلدا طريقتي في نطقها بسخرية.. كأنني مهرج يتلاعب بالكرات أمامه فلا يعير غضبته وحقه في الدفاع عن حديقته اهتماما.. قالها مقلدا طريقة سناء جميل في نطق الفرنسية وبنفس مخارج ألفاظها!

أخرج من جيبه سيجارة أخرى ووضعها في فمه وأشعلها في تحدٍّ.. ثم أعطاني ظهره واتجه مباشرة إلى مدخل البناية.. واختفى.

- معلش يا مدام عفاف اعذريه هو لسه ما يعرفش حضرتك.. أصله لسه جديد و..

- إسماعيل.. أنا دلوقتي مش شايفة قدامي خالص.. إتفضل روح اقعد في مكانك وسيبني في حالي..

- طب أوقف لحضرتك تاكسي؟

- قولت لك مش عايزة يا اسماعيل.. مش عايزة.. أوف.. دي بقت حاجة très ennuyeux.

ثم أشحت له بيدي غاضبة وتركته أمشي بخطوات ثقيلة مترنحة وأنا أتذكر نظرات عيني ذلك الفتى الوقح، كلكم جئتم من نفس الرحم الوقح.. ورضعتم من صدور تملؤها الحثالة.. وفطمتم على عدم احترام أولاد الأصول.

لماذا لم أستمع إلى كلام مراد.. لماذا لم أتزوجه وأرحل من هنا.. لماذ بقيت إلى جانبك يا أبي.. أهذه هي البلد التي طلبت مني أن أحبها ولا أتركها يا أبي؟

لماذا يا أبي؟

تائهة أمشي بخطوات ثقيلة حتى كدت أصطدم به.

فهمي الشناوي الضابط ذو القامة الفارعة والعيون التي كانت يوما خضراء بلون حقول نيس.. وشاربه المنمق الذي يفوح منه رائحة العطر الفرنسي كما تفوح من كل قطعة في ثيابه المهندمة.. منحني ابتسامة حانية وهو يصافح يدي بكلتا يديه مربتا.. رجل لا تشعر المرأة أمامه إلا بكل أمان واحترام.. رجل ابن أصول.



ـ بونجور مدام عفاف..

ـ بونجور فهمي بك.. Comment ça va

ـ ça va bien.. حضرتك منورة النهارده.

ـ ميرسي فهمي بك.

ـ ممكن اتمشى مع حضرتك شوية لو ما يضايقكيش.

ـ أكيد.

سار إلى جواري واضعا كفه في جيب بنطاله المكوي بعناية فائقة كأنه ذاهب لمقابلة رئيس الجمهورية.. وقميصه الأبيض يلمع في ضوء الشمس كأنما يصبغ بلون أبيض صاف كل يوم.

ـ مالك يا مدام عفاف.. حاسك مش مبسوطة؟

ـ فهمي بك.. هقول لك ايه ولا إيه.. إنت شايف الحياة بقت très morne.. والناس اللي في العمارة كمان بيزودوها.

توقف لحظة عن المشي محاولا أن ينصب قامته أكثر وأن يرسم تعبيرا بالغ الخطورة على وجهه الوسيم رغم الصلع وبياض شعره.

ـ في حد ضايقك في العمارة؟

ـ Tous

ـ أفندم؟

ـ كلهم فهمي بك كلهم.. بالذات الولد الساكن الجديد ده.

ـ ممم.. تاني نفس الولد.. واضح انه مش هيجيبها لبر.. عموما كل حاجة ليها وقتها يا مدام عفاف.. كل حاجة ليها وقتها.

رغم أن كلماته الخشنة الواثقة.. ونظراته السارحة في صف الأشجار منحتني بعض من الأمان.. إلا أن السؤال راح يقفز من جديد كمئات الأرانب الغاضبة فوق مروج عقلي.

لماذا يا أبي، لماذا تركتني هكذا وسط هؤلاء؟

لماذا لم توافق على رحيلي مع مراد؟

لماذا لم تعطني الفرصة أن أجرب أمان وحنان رجل غيرك؟ ربما كنت

خرجت من هنا ولم أعد إلا كي أدفن بجوارك بعد أن أموت.

تنهيدة حرقت صدري وخرجت لترفع حرارة الهواء من حولي.. تنهيدة لها كل المعاني وسؤالي أهمس به لنفسي وسط كلمات فهمي الشناوي المتداخلة في كل المواضيع التي لا أعرفها ولا أسمعها.. سؤال همست به وأنا ألتقط أنفاسي تحت أشجار المعادي.

ـ Pourquoi بابا.. نفسي اعرف Pourquoi؟!!

* * *





بدير العمدة

القانون لا يحمي أحدا.. إلا من يعرفه تمام المعرفة.

لو أخبرك أحدهم أن القانون هو الغطاء الذي يكفل لك الأمان والدفء من أعاصير الحياة فلا تصدقه يا عزيزي.. لا تصدقه إلا إذا كنت تعرف القانون جيدا.. تعرفه كما تعرف نفسك أو ربما أكثر.

إن القانون مثل أي شيء في بلادنا.. لا تصلح معه كلمات مثل العدل والمساواة وتكافؤ الفرص.. القانون مثل الوظيفة والمرور وطابور البنك.. لن تتخطى أسواره بسهولة إلا إذا كنت تعرف من يقحمك هذه الأسوار.. من يمنحك سلما أو حبلا كي تتسلق وتعبر إلى جنته الوارفة الظلال.

وهنا يا عزيزي يأتي دوري.. بدير العمدة المحامي بالنقض والاستئناف ومجلس الدولة.. عشرون عاما قضيتها في دهاليز المحاكم وأروقة النيابات وأقسام الشرطة.. كافحت كل الموانع والسدود والأسوار حتى أصل إلى ما أنا عليه.. قفزت من فوق كل الحبال التي وضعوها لتمنعني من العبور إلى هدفي.. بدأت مساعدا حقيرا لمحام شهير أكتب له المرافعات وأتجول في المحاكم برداء أسود كنت أرتقه بيدي ليلا كل يوم لأداري عيوبه وأداري جنيهاتي القليلة في جيب بنطالي الأسود.. ألقيت بكل هموم حياتي وأحلام الصبا والشباب كي أصل إلى هنا.. رحت أعلق اللافتة تلو الأخرى فوق بنايات حقيرة.. ثم أحركها إلى بنايات عادية.. ثم أحركها أخيرا لتستقر

فوق لوح بلاستيكي تلمع من خلفه إضاءة من النيون الأبيض فوق شرفة فاخرة ببناية هادئة في المعادي.

ولأني أعزب كشجرة سنط.. رحت أقضي أيامي وليالي في شقتي ومكتبي ومكتبتي ومقري الوحيد.. مقري الذي لم تنغصه علي يومًا أي مشكلة أو أزمة.. تقوم الدنيا وتقعد ولا تغلق المحاكم أو يتوقف الأوغاد عن ضرب بعضهم في قارعة الطريق.. أو الإتجار في المخدرات أو تسريح الفتيات ليمنحن متعة سرية لمن لا يستحقها إلا بماله الوفير.. هنا أظهر أنا.. ملتحفا سترتي البراقة المفصلة خصيصا فوق تضاريس جسدي الضئيلة.. وسيجارة الحشيش قد أطفأت أوزار عقلي فمنحتني سلامًا دائمًا لا يذهب.. من الجميل أن تواجه وكيل النيابة دائما وأنت ما زلت بعد تحت تأثير الحشيش.. الحشيش يمنحك قوة وصلابة كي تواجه ذلك الوغد المنمق الذي أفرجت عنه الدنيا فجلس في هذا المكان بدلا منك.. فقط لأن الباشا الكبير ليس مزارعا فقيرا في قرية معدمة في أطراف سوهاج.. ولأن الهانم ليست بائعة جبن في أسواق «قفط»، التقطها ذلك المزارع ليجعل منها سيدة بيت تنجب له طفلاً يعرج على قدمه منذ أن تعلم المشي عليها.

أجلس خلف مكتبي.. متخفيا خلف دخان سيجارتي الذي لا يزال عالقا في الهواء.. ربطة عنقي متدلية من ياقات قميصي حتى تمنحني منظرًا يوحي بالانشغال والأهمية.. وأكمام قميصي مثنية بلا نظام.. عندما دق الباب.

صدرت مني همهمة مرتفعة لم أميزها.. فُتح الباب لأجد إسماعيل.

وإسماعيل هو مثال لكل ما لم أرد أن أكونه.. فصار هو ما أردت ألا أصبح عليه.. كأنه نظيري الذي حماني من أن أصبح بوابًا أجلس على دكة خشبية أمام بناية فاخرة يلقي لي سكانها بالفتات شاكرين لي حسن عبوديتي وانكسار رأسي!

مثل إسماعيل!

ـ مساء الفل يا بدير بيه.



- إزيك يا اسماعيل.. كيف أحوالك وكيف البلد؟
- الأحوال تمام والله.
ثم توقف مانحًا إياي نظرة غبية خالية من أي معنى..
- إيه يا اسماعيل خير؟
- خير ان شاء الله.. أنا بس كنت عايزك في موضوع.. هو الصراحة مش انا اللي عايزك ده الأستاذ.
- مساء الخير يا أستاذ بدير.
ظهر من خلفه وكأنها نبت من عدم.. قميص كاروه حديث الصناعة وجيِّدها.. لا يوحي بأن صاحبه عاشق للمكواة.. وبنطال من الجينز يكسو جسدا ممشوقا.. جسدا تمنيت أن أحصل على مثله.
تقدم نحوي مادًّا يده المعروقة السمراء مصافحا.. فمددت يدي متحاشيًا استكمال النهوض حتى لا أمنح نفسه وعقله الباطن مادة ثرية للسخرية من جسدي الضئيل وشاربي الكث المنمق.. ثم أشرت له أن أجلس.
- أهلا وسهلا تشرفنا.. بيتهيأ لي شفت حضرتك قبل كدا.
ابتسامة باهتة تتوسط وجهًا غير حليق.. وجه لم أتمنَّ يومًا أجمل منه.. تمنيت يوما لو أطلقت لحيتي القصيرة مثله.. لولا أن عملية تجميل ذلك الحرق في خدي الأيسر تمنع أن يكون لي لحية من الأساس.
- أنا الساكن الجديد في الدور الثالث.. الشقة اللي تحت حضرتك على طول.
- ياه.. هي الشقة دي سكنت أخيرا.. تشرفنا.. تشرب ايه بقى؟
- ولا أي حاجة.. أنا جاي لحضرتك في موضوع صغير بس.
- إنت عايز الناس تاكل وشنا ولا إيه.. إسماعيل اعملنا اتنين شاي سكر برة واقفل الباب وراك.
ثم أشرت لإسماعيل إشارة بطرف عيني فهمها جيدا.. فهم أن الرسالة تعني بكل بساطة.. ارحل من حيث جئت فلن نقدم مشروبا لذلك الشاب.. بعد قليل سوف ينسى أو يتناسى!

رحل إسماعيل وأغلق الباب.. فأخرج الشاب سيجارة من علبة محلية ورقية.. وأخرج قداحة لطيفة الألوان من التي تباع في محطات البنزين حتى يشتريها أولاد الذوات.

تك.. تك.. تك

حتى هذه القداحات تخرب إذن.. إنها تبدو لي جديدة.. لكنها تأبى أن تشعل السيجارة.

تك.. تك.. تك

ـ أنا مش عارف الولاعة بنت الجزمة دي ما لها.

ـ عشان كدا طول عمري بحب الكبريت.. يقول لك بقى يكرف السيجارة ولا يغير طعمها.. ولا تصدق أبدا.

ثم أشعلت عود ثقاب من علبتي الكبيرة فتناوله مني شاكرا، وأشعل سيجارته نافثا سحابة جاورت سحابة دخاني العالقة في الهواء.

ـ خير يا أستاذ؟

ـ والله خير ان شاء الله.. الموضوع باختصار عشان ما اعطلش حضرتك.. أنا والدي رحمة الله عليه كان بيشتغل مدير مالي في شركة المنسوجات المتحدة.. اللي في الهرم لو تعرفها.

ـ آه طبعا طبعا.. مش اللي اشتراها محسن الجمال من كام سنة؟

ـ قصد حضرتك اللي استولى عليها بالبخس.

بداية غير مبشرة.. وتوحي بأننا لن نتفق هنا.

ـ اللي اعرفه انه اشتراها قانوني من الحكومة لما اتخصخصت.

ـ مش هنختلف.. ساعات كتير القانون بيبقى هو أساس المشكلة.

ومن أنت حتى تحدثني عن القانون يا هذا.. أنا صديقه الصدوق الذي يعرف حباله المشدودة فيجيد اللعب فوقها.. وحباله المرخية فيجيد التعلق بها.

ـ المهم عشان ما اضيعش وقتك.. والدي سوى معاش مبكر عشان اتقال له صراحة كدا انت مالكش مكان هنا.. طبعا بدون الدخول في

التفاصيل اتقص من مكافئته مبلغ كبير أوي.. رفعنا قضية مع الأستاذ خالد علي والحمد لله اتحكم لوالدي فيها هو وعشرين واحد كمان بمبلغ تعويض محترم.. طبعا ده بعد الثورة بكام شهر لما كانت الدنيا ربيع.

ـ جميل جدا.. أهو حقهم رجع لهم قانوني اهو.. إيه المشكلة هنا بقى؟

نفث آخر أنفاس سيجارته العجوز المتثنية.. ثم أطفأها في منفضتي لتتخذ مكانها وسط أعقابي الحمراء المزدانة بشريط ذهبي فتبدو مثله.. شخص كهذا كيف انزرع في وسط بناية كبنايتنا هذه؟!

ـ المشكلة ان محسن باشا مش عايز ينفذ الحكم.. ومسافر برة مصر بقى له اكتر من سنة.. وأبواب الحكومة مقفولة.. حتى الحجز عليه مش نافع لأن محدش عايز يحجز ولا حد عايز يدور على حق حد.. ببساطة كدا والدي رحمة الله عليه ما استحملش ان عمره يضيع كدا.. لحد ما مات بحسرته والعمر ضاع فعلا..

ـ وانت بقى جاي لي عشان عايزني اشور عليك تعمل ايه؟

ـ بالظبط.

اعتدلت في جلستي إلى الوراء وأخرجت سيجارة جديدة أشعلتها بطرف ثقابي.. وأنا أراقبه بنصف عين يحدق في وجهي بنظرات وقحة.. نظرات تخترق أعماقي.. عينان لا عسليتان ولا سوداوان تحملان بريقا لا تخطئه عينان خبيرتان مثل عينيّ.. أتراه يعرف ردي من قبل أن أخبره به ولذلك جاءني؟!

ـ أنا مش هاقدر افيدك في حاجة يا أستاذ معلش.

ـ وليه يا أستاذ بدير.. هو مش حضرتك محامي برضه ولا دي ورشة خراطة؟

أطلقت ضحكة عصبية كتمت فيها غضبي من لهجته الاستفزازية الهجومية.. هو يعرف إذن.. يعرف ردي جيدا ودرسه آلاف المرات قبل أن يأتي.

ـ لا مكتب محامي طبعا.. مكتب بدير العمدة.. وبدير العمدة لمعلوماتك

المحامي الخاص والمستشار القانوني لنص رجال أعمال البلد.. ومنهم طبعا..

ـ محسن الجمال

ـ بالظبط كدا.

ـ وطبعا حضرتك مطالب انك تدافع عن مصالح الراجل اللي مشغلك.

ـ إيه مشغلك دي ما تلم..

ـ وطبعا الرقم الكبير اللي بيديهولك محسن الجمال أهم بكتير جدا من الرقم الصغير اللي ممكن تاخده نسبة من تعويض تافه زي اللي اتحكم بيه لابويا؟

ـ إنت جاي تحاسبني ولا..

ـ وطبعا لو كلمتك عن شرف المهنة.. وأخلاقيات المحامي وان العدل هو الغاية هتتريق عليا ومش بعيد تنادي لاسماعيل اللي المفروض كان بيعمل اتنين شاي ونام جنبهم ياخدني برميني برة.. أو هتتصل بصاحبك فهمي الشناوي يجيب اتنين عساكر من القسم وتلبسني قضية.. أو ممكن تطلع مسدسك المترخص اللي في درج مكتبك الشمال وتضربني طلقتين عشان تفش غليلك وقانونا انا اللي اتهجمت عليك في مكتبك.. لكن عارف.. إنت مش هتعمل كل ده.

ثم نهض واستند بكفيه فوق مكتبي وأمال جسده محدقا في ببرود من خلف سحابة الدخان.

ـ لأنك عارف اني كنت عارف.. وعارف كويس أوي انا جاي لك ليه وعشان ايه..

ـ جاي لي ليه؟

خرجت متحشرجة مخنوقة في حنجرتي وأبت أن تخرج بصوت مرتفع مستنكر.. بينما هو مستمر في إلقاء أضواء كشافاته العسلية أو السوداء فوق وجهي.

ـ إنت عارف يا بدير كويس.. ارجع بذاكرتك لورا شوية وانت تعرف.. إرجع ليوم ما قابلت ابويا قدام المحكمة وأقنعته يوكلك انت.. مبلغ التعويض

يا بدير.. حادثة قطر البدرشين يا بدير.

ثم رفع قامته المشوقة وحدق في أركان الغرفة بازدراء وكأنه في مقلب قمامة عمومي.. والتف بجسده كله راحلاً من الغرفة.

ـ إنت عرفت منين ان في مسدس في الدرج الشمال.. إنت بتراقبني؟

أكاد أجزم أني رأيتها تتشكل على وجهه.. ضحكة ساخرة هازئة ماكرة.. ضحكة سافرة كضحكات الضباع.

ـ ولا براقبك ولا حاجة.. أنا رميتها كدا وهي جابت رزقها.. سلام يا بدير بيه.. آه إبقى شوف اسماعيل احسن يكون طمع في الشاي وشربه هو.. واعمل حسابك انك هتشوفني كتير.. كتير أوي يا أستاذ بدير.

.نطق اسمي كأنما يبصق بلغما جاثما في أعماق مرّيئه.. بصقه ثم مسحه بحذاء رياضي رخيص.

ثم رفع يده نحو رأسه ملقيا التحية وأغلق باب المكتب خلفه في عنف.

بقيت مكاني محدقا في ذلك الفراغ الذي كان يحتله منذ قليل ذلك الشاب.. عيناي معلقتان بالباب المصفوق خلفه.. وسيجارتي أوشكت على الوفاة فوق عقبه الأبيض المحلي الصنع الممتص حتى آخر ثانية في عمره.

رفعت هاتفي المحمول إلي طالبا رقمًا أحفظه جيدا.. وعندما جاءني الصوت الخشن من الجانب الآخر.

ـ أيوة يا مرعي.. أنا بدير العمدة يا جلف.. أنا عايزك تجيلي هنا بسرعة.. لا مش بكرة.. دلوقتي.. آه عارف الساعة كام.. ولو الفجر حتى هتجيلي.. الموضوع مهم أوي بالنسبة لي.. مهم فوق ما تتصور.. مسألة حياة أو موت.

❋ ❋ ❋



أشرف ممتاز

(وانطلق وحيد عوني بدراجته البخارية الحديثة ماركة هارلي ديفسيون يمزق سكون الشارع الراقي في القاهرة الجديدة.. حليق الذقن فارع الطول عريض المنكبين.. لا يعرف إلا الحزم والتصميم على تنفيذ هدفه واصطياد فريسته.. يستقر مسدسه بجوار إبطه وتستقر خوذته السوداء فوق رأسه فتحوله إلى وحش كاسر لا يوقفه أحد).

أنهيت كتابة سطوري ورحت أطالعها على شاشة الكمبيوتر المحمول.. وأنا أنفث دخان سيجارتي الرفيعة ذات الفلتر الأبيض.. أغلقت عيني ورحت أتأمل متخيلا بطلي الخارق وحيد عوني وهو يشق سكون الليل بدرجاته.. رجل الأمن القومي الخطير والمهاري الفذ والضابط المحنك المتمرد.. بطل كما يجب أن يكون الأبطال.

أتذكر يوم قال لي ناشري منذ خمس سنوات، عندما قدمت له أول قصصي عن وحيد عوني، وأنا أبتسم ساخرا من سذاجتي.

يومها مدد ساقيه المتخشبتين ونظر نحوي من فوق نظارة القراءة الصغيرة.

ـ الاسم مش بطال يا أشرف.. بس الموضوع نفسه متشابه ومتكرر جدا.. البطل بتاعك كوكتيل مضروب في الخلاط من جيمس بوند وأدهم صبري وإيثان هنت بتاع ميشن إمبوسيبل.. ذكي ولماح وقوي ومتمرد

وبيعرف لغات وبيعرف يركب كل أنواع المركبات وبيصارع بكل أنواع الرياضات.. بس انا لي ملحوظتين.

ضممت ساقي في خجل ورحت أجفف قطرات عرقي البارد من فوق منابت سوالفي الطويلة.

ـ أنا معاك يا ريس قل لي.

ـ أول ملاحظة.. القارئ بتاعنا خجول يا أشرف وشعبنا متدين بطبعه زي ما انت عارف.. ما ينفعش البطل بتاعك يبقى نسوانجي وبيعرف كل يوم واحدة شكل، وليه علاقات معاهم كمان.. كدا القراء هيبعدوا عننا.. والأبهات والأمهات هيمنعوا بناتهم انهم يقروا روايات وحيد عوني.. والتوزيع يقل ومشروعنا كله يقع.. الملاحظة التانية بقى.. إن وحيد عوني مش بني آدم طبيعي يا أشرف.

ـ مش بني آدم ازاي يا ريس معلش؟ ده حتى..

ـ ما تقاطعنيش يا أشرف.. ما تقاطعنيش.. أنا اقصد ان وحيد عوني لازم في مرة يتصاب.. يعجز عن حاجة.. يطلب مساعدة حد.. يبقى له فريق عمل يظهر في وقت الأمور لما تتأزم عليه ويتحرك كله في مداره عشان يساعده.. ويستحسن بقى لو كان العنصر ده نسائي بيموت في وحيد.. بس وحيد ولا معبره.. فهمت يا أشرف؟

لماذا شعرت ساعتها أن أستاذي الناشر الكبير أشبه بتهامي باشا بطل إعلانات القناة التلفزيونية الشهيرة.. وأني سوف أغلق عيني اليمنى وأمط شفتي قائلا (أستاااااااذ).

نهضت شاكرا أفضاله واعدًا إياه بتسليمه أول قصة بعد التعديلات المطلوبة.. وما إن التفت حتى ناداني باسمي.

ـ أشرف.

ـ نعم يا ريسنا.

ـ في حاجة أخيرة قبل ما تمشي.

التفت له فوجدته يحدق الورق بنظرات هي خليط من الاشمئزاز وعدم الرضا.

ـ أؤمرني يا كبير.

ـ إسمك.

ـ إشمعنا؟

رفع رأسه ونظر إلي بنظرة طيّرت شعر رأسي وأسقطت قلبي في منبت أظافري.

ـ إنت هتخشلي قافية يا أشرف؟ إسمك ده لازم يتظبط شوية.

ـ مش فاهم يا كبيرنا

ـ يعني أشرف عبد المهيمن ده اسم دكتور بيطري مش كاتب روائي.. إنت اسمك الرباعي إيه؟

ـ أشرف عبد المهيمن محمد البوجري.

ـ وده بيتقري ولا بيتبصم ده؟

ثم أطلق ضحكة مستفزة ساخرة اقتلعت كرامتي وألقتها في سلة المهملات القريبة من مكتبه، وراح يحدق في وجهي بعدها مضيقا عينه اليسرى وهو يتفحصني، كنخاس محترف في سوق عكاظ.. ونهض من خلف مكتبه مقتربا مني واضعا كف يده اليمنى فوق كتفي.

ـ أنا كان عندي تلميذ في المدرسة زمان أيام ما كنت بدرس تربية فنية شبهك كدا.. كان ولد موهوب وغزير الإنتاج وكلنا كنا بنتنبأ له بمستقبل كبير أوي رغم ان عمره ما اتخطاش الخمستاشر سنة.. الولد ده كان اسمه أشرف ممتاز.. أيوة.. من النهارده انت أشرف ممتاز.

ـ أنا اتأثرت أوي يا ريس.. لازم حضن مطارات بعد اللقطة دي.

ـ يلا يا وسخ من هنا.. العدد الأول يكون عندي بعد يومين بالظبط بالتعدليات.

ثم تركني واتجه إلى نافذة مكتبه التي تطل على أحد شوارع وسط البلد العامرة ببائعي الملابس الداخلية وأطقم الميلامين الصينية.



ـ معلش يا ريس هو حضرتك قولت عدد أول.

ـ أيوة.

ـ معنى كدا ان في تاني.

ـ وعاشر وعشرين كمان.. أنا هاعملك عقد مدته خمس سنين.. وانت وشطارتك بقى يا أستاذ.. يا نكست راسي في الطين وندمتني على اللي عملته معاك.. يا مصر كلها هتعرف اسم أشرف ممتاز.. دلوقتي يلا.. فات من اليومين ساعة وانا ما بحبش التأخير.

ومن يومها وانا أشرف ممتاز.. أحد أشهر الكتاب المتخصصين في أدب الشباب وكتب الجيب.. لك أن تتخيل أن العدد الأول نفد من الأسواق بعد أسبوع من طرحه.. وأن الشباب ينتظرون أمام المكتبات كل بداية شهر كي يحصلوا على عدد من سلاسلي الأربعة بل إن روايتي الأولى التي تكتب الآن ببطلها الخالد وحيد عوني قد بيعت طبعاتها الخمس الأولى قبل حتى أن أنتهي من كتابتها!

تحولت إلى نجم مجتمع في لحظات.. هجرت مقاهي وسط البلد ومطاعم مصر القديمة إلى أرقى كافيهات الزمالك وأرقى مطاعم المعادي.. تركت غرفتي المتواضعة في قلب إمبابة واشتريت شقة بحر مالي في تلك البناية النظيفة الراقية.. كل شيء كان رائعا حتى ظهر ذلك الفتى الذي يسكن في الطابق الثالث!

منذ أول يوم رأيته يحمل كيس المهملات الأسود محكم الغلق وهو يحتضنه في إحكام كأنه ابنه الرضيع.. ويتلفت يمنة ويسرة كأنه خارج لتوه من مغارة علي بابا محملا بكنوز الذهب والياقوت والمرجان!

صرت لا أرى في حياتي سواه.. أصحو ليلا في وقتي المفضل للكتابة والإبداع فأجد الأنوار مضاءة في غرفته الداخلية التي تطل على ما نسميه المنور.. وأنا جالس في غرفتي أكتب وأختلس النظرات إلى خياله الممشوق وهو يتحرك خلف الستار الأبيض كأنه خيال ظل في عرض مسرحي مشوق.. أكتب جملتين ثم أذهب لتحضير قهوتي الرابعة فأجده في مطبخه

يصنع أصواتا مكتومة بآنية الطبخ.. ألا ينام هذا الشاب؟ حتى عندما أفتح باب شقتي صباحا لألتقط الجريدة التي وضعها إسماعيل هناك كعادته كل صباح باكر.. أجده وقد خرج من باب شقته في الطابق الثالث أسفل مني وهو يحتضن كيس المهملات الممتلئ كأنه كنزه الأثير.. كل يوم في نفس الموعد.

ـ هو أخينا اللي في الثالث ده عايش لوحده يا سمعة؟

ـ أيوة يا أشرف بيه.. بطوله زي ما هو كدا.

ـ أصلي كل يوم بالصدفة كدا بشوفه خارج ومعاه كيس زبالة اسود مليان كأنه عايش مع خمسة في البيت.

ـ ربنا أعلم بعبيده يا أشرف بيه.

يحدجني إسماعيل بنظرة أعرفها جيدا.. الحقيقة أن كل السكان لا يستسيغون شعري المنسدل فوق كتفي ولحيتي الثائرة.. ونظارتي الشمسية ذات الإطار الأبيض السميك.. هم لا يعرفون سمت الفنانين ولا يعرفون أن الأثر الذي أتركه فيهم بشعري ولحيتي ونظارتي الغريبة هو الأثر الذي سيبقى طوال العمر عالقا بأذهانهم العادية المسطحة الغارقة في مستنقعات المظاهر الكاذبة.. وليس ذلك الشاب الممشوق النحيل.. ذي القميص الكاروه البسيط واللحية النابتة كحشائش جزيرة الطريق في شارع صلاح سالم.

كان هذا حتى اليوم الذي قررت فيه أن أقترب.. رغم أني لا أحب الاقتراب يا عزيزي ولا أرجحه.. الاقتراب شر.. كل من اقترب احترق.. بروميثيوس هرب النار إلى الأرض واقترب من حصن الأوليمب المنيع فعلق بين جبلين وجعل الرخ كبده وجبته اليومية! امرؤ القيس اقترب من ليلى فاحترق بنار هواها حتى هام على وجهه في أودية عبقر!

كان هذا اليوم من أيام أبريل الربيعية السيئة.. أنا أكره أبريل وأكره الربيع برمده وخماسينه.. أحب الصيف بشمسه المحببة.. ونسماته الليلية العليلة.. خرجت صباحا ملتحفا نظارتي الشمسية ماركة فيرساتشي ذات العدسات

البرتقالية المستديرة وصندلي الجلدي الرفيع.. هبطت سلم البناية ووقفت هناك في مدخل البناية، أتسلى بقراءة تنبيهات صفحتي على فيس بوك.. حتى هبط هو السلم حاملا الكيس المنتفخ بين ذراعيه.

سار بضع خطوات وهو لا ينتبه إليّ.. أكاد أجزم أنه لا ينتبه إلى أحد.. حتى أنه لم يلق تحية الصباح على إسماعيل المنهمك في لعب دور المثقف الأربعيني الريفي وهو يمسك بجريدة الصباح محاولا قراءة صفحة الرياضة بالمقلوب!

اقتفيت أثره ببطء محافظا على المسافة التي تسمح لي بأن أبقى على مقربة وبألا يلاحظني.. توقف عند أحد الأكشاك القريبة من البناية، فاستندت على سور أحد الفلل وأخرجت هاتفي محاولا تصنع الانشغال به.

- صباح الخير يا فنان.

- ريم.. إزيك يا حبيبتي.. what a lovely dress

- ميرسي متشكرة.. أول مرة نشوفك في الشارع قبل الساعة ٧ بالليل.. وما لك متلخبط ليه كدا؟

ريم ابنة الأرملة الخمسينية التي تسكن فوقي في الطابق الخامس.. نموذج لكل ما يتمناه الرجل الشرقي المتحجر من جمال.. ثياب ضيقة بألوان زاهية.. وحجاب معقوف إلى الخلف يبين رقبتها المستديرة البيضاء.. ونظرة خجل وانكسار في عينيها مع شفتين مكتنزتين صنعتا لمنح القبل.. فاتنة من عصور الجواري كما خلقت الجواري.. لكنها ليست لي.. لو دار عقلي وتناول منها في أحد المرات لأصيب بالتسمم.

- لا انا.. مخبيش عليكي.. I'm in middle of creation.. عندي رواية جديدة شغال فيها مبهدلاني يا ريمو والله..

- ربنا معاك يا رب.. أنا لما بقول لصحابي ان أشرف ممتاز ساكن معانا في نفس العمارة بتجيلهم جلطة من كتر الانبساط.

- بعد الشر على صحابك يا روحي.

أطلقت ضحكة مكتومة مع تصاعد الدم إلى خديها المستديرين كحبتي

تفاح فرنسي.. لو كنتِ خجلة من كلماتي وتظنين أني أعنيها يا عزيزتي فلتأخذني لعنات الشياطين إلى الدرك الأسفل من الجحيم.

ـ طيب يا ريمو انا مضطر اسيبك.. عندي تمشية صغيرة كدا وبعدين هروح عشان اعرف اكمل شغل في الرواية.. يلا see you sweete.

ثم أشرت لها بطرف إصبعي ومررت من الفرجة التي صنعها ابتعاد جسدها عن مجال رؤيتي لأجد صديقنا يحث الخطا نحو أرض فضاء يحيطها سور من الصاج.. اقترب أكثر ثم نظر إلى اليمين واليسار.. ودار حول أرض الفضاء وأنا محافظ على تلك المسافة حتى اختفى من أمامي.

اقتربت أكثر أستوضح المكان.. اقتربت حتى أصبحت عند أحد أركان السور الذي اختفى وراءه.. عبرت النقطة لأجد نفسي أمام عربة قمامة صغيرة مما وضعتها شركة النظافة الإسبانية قبل أن ترحل بعد فسخ تعاقدها وتكف هيئة النظافة عن تفريغها حتى تحولت إلى عربات تخزين لأكوام القمامة داخلها وما حولها.. ألقيت بنظرة خاطفة على العربة لأجد الكيس الأسود المنتفخ محكم الربط هناك راقدا وسط إخوته المشردين مبقوري البطون والظهور.. لا بد أن أعرف يوما ما في هذا الكيس.. لا بد أن أفهم.. لكن فتح كيس قمامة في وضح النهار في حي مثل المعادي يسكنه نصف معجبيني وقرائي هو تصرف غير أنيق بالمرة!

التفت عائدا إلى مكاني عندما وجدته أمامي!

تعثرت في حجر وكدت أسقط على ظهري من هول المفاجأة.. نظراته الساخرة تثقبني وتخترق رأسي وعيني.. وابتسامته الصارمة الساخرة تغطي وجهه وسط لحيته النابتة.. مد يده المعروقة القوية وقبض على معصمي فمنعني من السقوط وأشاع الألم في ذراعي.

ـ إسم الله عليك.. حاسب لتعور روحك.

ـ أنا.. أنا متشكر جدا يا أستاذ.

ثم سحبت معصمي من قبضة يده وعدلت هندام قميصي الأبيض الواسع.. وعدلت من وضع نظارتي الشمسية.

ـ طيب.. أنا بقى اللي هكون شاكر ليك جدا لو حضرتك فسرت لي انت ماشي ورايا ليه من ساعة ما خرجت من باب العمارة؟

ـ أنا.. لا طبعا مستحيل.. أمشي وراك ليه يعني؟

ـ والله حضرتك اللي المفروض تفسر لي.. ما تردش على سؤالي بسؤال؟

نظراته تتفحصني من منابت شعري إلى أخمص قدمي.. عيونه التي تلقي الشمس عليها بأشعتها فتتحول إلى عسلية براقة.. وبؤبؤ عينه الأسود يخترق عيني كألف دبوس وضعوا فيها.

ـ أنا لا ماشي وراك ولا حاجة يا أستاذ.. وبعدين please وسع عشان انا عايز اشوف اللي ورايا.

ـ أوك اتفضل..

أفسح لي الطريق وأشار بيده المشعرة المعروقة لي كأنه رجل شرطة.. عيناه لا تزالان تنظران إليّ في تفحص، وكأنه يراني عاريا كيوم ولدتني أمي!

ـ نهارك سعيد.. شكرا على المساعدة.

ـ العفو.. بس لما تحب تراقب حد بعد كدا ما تلبسش نظارة شمس برتقالي وقميص ابيض كتان كأنك رايح البلاج.. خليك ناصح شوية يا كاتبنا الهمام.

قالها وكأنه يقينها.. مشددا على حروف الهمام.. مقبحا لكل ما في اللقب من عظمة وقوة.. كيف خلق أحدهم بكل هذه الوقاحة.. كيف يلقي علي بنصائحه العظيمة وهو يتسرب صباحا بكيس مهملات منتفخ يحتضنه كأنه كنزه الأثير!

على صوت قداحته التي توترني وتلقي في نفسي بتأثير لا أحبه رحلت.. الصوت يأتي كأنه من بئر سحيقة.. كأن أحدهم يرسل لي برسالة استغاثة.

تك.. تك.. تك

حثثت الخطى نحو الطريق وصوت سبابه المقذع لقداحته يصم أذني كألف ألف انفجار مدوٍّ.. وأنا أحث السير مهرولا نحو البناية.. أصعد درجات السلم ركضا ولا ألقي بالاً لذلك اللواء المتقاعد الذي يحاول أن

يظهر بعضًا من رجولته بفتح قميصه حتى منتصف صدره ليبرز شعرات صدره الرمادية متخذًا مظهرا شبيها بذئب عجوز.

دلفت إلى شقتي.. ألقيت بجسدي على المقعد أمام شاشة الكمبيوتر وأشعلت سيجارة بيد مرتعشة.. وارتديت نظارة الكمبيوتر ذات الإطار الأحمر واستجمعت قوتي وعزمي ورحت أجول بأصابعي فوق لوحة المفاتيح.

(اقترب الفتى من وحيد شاهرًا مسدسه الصغير.. عيناه العسليتان تلقيان بظلال قاتمة حوله.. وذقنه غير الحليقة تشي بليلة لم تكن أبدا سعيدة.. قميصه الكاروه الواسع يتطاير مع الهواء في مشهد يليق بأفلام رعاة البقر.. رفع الغريمان أسلحتهما في الهواء.. وابتسامة واثقة تلتمع فوق وجه وحيد ذي الذقن الحادة.. وابتسامة ساخرة ماجنة كست وجه الشاب.. وعندما انطلقت الرصاصة.. لم يعرف كل غريم منهما أن الرصاصة لن تصيب سوى صدر الغدر والخسة).

❁ ❁ ❁





ريم طاهر

كلهم ينظرون فقط إلى هنا.

أقولها لنفسي دائما وأنا أمام المرآة الكبيرة.. ذات الإطار الخشبي المذهب.

المرآة التي أنفقت أمي عليها سعر زجاجة تلميع وثلاث صفحات من جريدة الأهرام.

أشير إلى نصف جسدي العلوي ثم أطلق ضحكة ساخرة مائعة.. تتبعها تكشيرة تكرمش وجهي وتحوله إلى زعافة أسقف.. أزيح خصلات شعري المصبوغ بخصل شقراء وأخرى بنية لأنظر إلى نحري الأبيض ورقبتي الملساء.. وأكررها إلى نفسي من جديد.

كلهم ينظرون فقط إلى هنا.

تعودت منذ أن وضعت الحجاب على رأسي بعد وفاة أبي أن أتزين وأتعطر وأرتدي من الثياب أقلها وأنا في المنزل.. أحاول دائما أن أضع لنفسي قليلا من الإضافات وأنظر في المرآة الكبيرة أتأمل جسدي من منابت شعري الطويل وحتى أصابعي الدقيقة المصبوغة أظافرها بعناية وفن.. أتأمل تلك الهدية التي لن يحصل عليها شاب من هؤلاء المرتزقة المتسكعين فوق نواصي الشوارع.. طلبة الجامعات مُسقطي البناطيل طويلي الشعر.

الهدية التي منحها إياي الخالق مع توصية بأن أحافظ عليها حتى يأتي من سيحصل عليها مغلفة بفستان أبيض طويل ووجه مغرق في الأصباغ..

ليضعها بجواره على أريكة من القماش الشانيليا الرخيص لتشاهد معه مباراة الأهلي ودمنهور، وتتحمل بصقه لقشر اللب ثم تتحمل بول ابنه فوق ثيابها المنزلية الرخيصة، وتمنحه آخر الليل قطعتين من البوفتيك ليملأ بهما كرشه المتهدل وتمنحه جسدها لكي يطفئ فيه شهوته.. مستمتعة بأن لها زوجا وبيتا وحياة!

من قال إنني قد أتحمل ذلك أو أقبل به؟ لا وألف لا.. رغم إلحاح أمي المستديم على رؤية العرسان المحملين بقوافل المال من دول النفط.. أو العرسان القادمين من بيوت يملؤها الرجال الذين يشاهدون مباريات الأهلي ودمنهور عصرا.. وجل أحلامهم تتلخص في أن يكونوا مثل آبائهم.

أتمشى داخل الشقة وحيدة مستمتعة بأن أمي العزيزة.. السيدة فوزية الحاوي.. قد ذهبت لتقضي واجب العزاء في شخص ما ينتمي إلى عائلة ما من العائلات التي تأتي منهم بنفس العرسان المدججين بالوعود.. أشغل إحدى قنوات الأغاني التي تخفيها مني على الدش فأعود وأعيد برمجتها خلسة.. وأتراقص بجسدي وأنا أتمشى يمنة ويسرة.

أتعجب لحالي.. أتعجب كيف منذ ثلاثة شهور كنت أنوي أن ألقي بجسدي من فوق سطح بنايتنا العزيزة إلى الطريق العام.. كيف كنت سأفعل ذلك من أجل فتى حقير لا يقدر أني منحته يوما يديَّ ليقبلها وهمًا.. ولا كيف منحته يوما عيني لينظر فيهما ملقيا على أذني بقصيدة يملؤها الغرام.. كيف كنت سألقي بنفسي من سبعة طوابق لأجل هذا الـ(هيثم).. هل كان هيثم أم محمود؟ أضحك عاليا لغرابة الموقف.. كيف نسيت اسم من كان يومًا توأم روحي وحبي الأوحد والشخص الذي كنت سألقي بنفسي من فوق السطح بسببه بعد أن تركني وصادق صديقتي الصدوقة؟ تلك الحقيرة خطافة الرجال.. ماذا كان اسمها؟ ربما نهى أو سهى.. كلهن يتشابهن.. كلهن يأتين ويحلقن حولي طالبين الرفقة ثم يرحلن مع أول شاب أخرق يلقي بتذكرة سينما لإحداهن.

وحيدة.. وماذا في ذلك.. لا أجد من يحبني ولا من يحنو عليّ.. فلتحترق الدنيا إذن حزنا على حالي.. فأنا لا أبالي.

منذ أن رحل أبي وتحول إلى صورة مبتسمة في إطار أسود وأنا وحيدة.. أصبح كل الرجال واحدا.. كلهم ذكور وفقط.. وأنا لن أربط حياتي بذكر وفقط لغرض التزاوج.

هاتفي يشدو بأغنية لتامر حسني.. إنها مايسة.. صديقة الشهر.

- إيه يا ريرو.. بكلمك بقى لي ساعة ولا انتي هنا.

- ولا حاجة كنت برتاح شوية.. الصداع تاعبني أوي.

لا بد من قليل من ادِّعاء الصداع والضغط كل لحظة وكل ساعة.. الصداع يعطي الفتاة مظهرا حكيما قويا.. الأقوياء والحكماء فقط من يصابون بالصداع!

- لا صداع ايه.. إصحي لي كدا وركزي معايا عشان خاطري.. الواد ابراهيم بتاع صيدلة

- ما له؟

- بقى له شهر زي ما انتي عارفة بيكراش على عالفيس بتاعي.

- بيكراش ازاي؟

مرحبا بك في أرض البنات يا عزيزي.. أغلق الباب خلفك ولا تعر هذا الأمر انتباها!

- لايكات وبوستات غامضة كدا.. المهم لقيته النهارده داخل عليا الكلية وضارب الحتة الغالية.. ومغرق نفسه بقزازتين برفيوم تركيب من عند سلطان العطور.. وقال إيه.. ما قدرتش ما اجيش.. وحشتيني.. وحشته ايه المنيل على عينه واحنا لسه يا دوب راجعين الجمعة من دريم بارك.

- واحدة واحدة عليا كدا.. كراش ايه وجمعة ايه ودريم بارك ايه؟

المأفونة بدأت رحلة الابتعاد.. وأول بشائرها أنها تخفي علي رحلاتها مع الرفيق المنشود!

- إيه.. ما انا جايالك في الكلام اهو.. مش انا لسه بتكلم اهو ولسه كنت هقول لك.. أصله كلمني في التليفون الخميس وقال لي.

ـ مش مهم يا مايسة.. كملي وبعدين.

ـ مايسة مين يا ريم.. أنا رباب يا حبيبتي صباح الفل.

نظرت نحو شاشة الهاتف في ارتياب.. ألم تكن مايسة التي اتصلت بي منذ دقائق.. أم أنها رباب وقد ظننتها تلك اللعينة مايسة.. رأسي الذي تحول إلى ثمرة بطاطس تالفة وانتهى الأمر.

ـ معلش يا رباب سوري الصداع مبهدلني.. طيب وعملتي معاه ايه؟

ـ ما انا مكلماكي عشان كدا.. أنا الصراحة كدا الواد عاجبني.. حلو كدا واسمراني وعينه واسعة وشيك.. وما بيستخسرش فيا حاجة.. بس هو داخل في دور حب وارتباط وانا بقلق من الحاجات دي.. وانتي عارفة أخري صحوبية وخروج وتليفون.. أعمل ايه بقى؟

ـ سبحان الله في طبعك.. هو عيني فيه وأقول إخيه.. ما تدوسي يا بت وتشوفي آخره ايه.. لو كمل زي ما هو يبقى خير وآديكي وقعتي في صيدلي مش في مندوب مبيعات.. لو اتغير ولا اتلون عليكي احلقي له يا قلبي ولا كأنه كان موجود.. الموضوع بسيط يا روحي بتعقدوه ليه؟

أمطرت أذني بكلمات مديح وكأني أمطرت عليها من الحكمة وسلوى المعرفة.. وراحت تتعبد في محراب بعد نظري وقوة حجتي.. ثم رحلت تاركة الهاتف مظلما كما رحلوا جميعا.

رحت أنظر إلى اسم رباب في سجل المكالمات واكتشف كم صار عقلي يهرب مني كثيرا هذه الأيام.. كثيرا منذ أن ظهر هو في البناية.

أتذكر يوم كنت أنوي أن ألقي بنفسي من فوق السطح.. أو لنكن صرحاء..

أتذكر يوم كنت أنوي أن أقنع نفسي بأن ألقي نفسي من فوق السطح ولم أقتنع.. يوم سخر مني وألقى علي بعباراته الحادة.. منذ ذلك اليوم وأنا أحيطه بنظراتي والتفاتاتي.. يا لغرابته.. يا لعينيه الواسعتين الهائمتين في عوالم لم تطأهما عينان سواهما.. يا لشفتيه المضمومتين في كبر وإباء.. وكلماته القليلة وهو يخاطب إسماعيل البواب.. أو وهو يجيب على الهاتف المحمول.. يا للباقته وذوقه وابتسامته الساطعة وهو يمنح أمي السيدة الخمسينية التي ترعرعت في

أساور بولاق الدكرور وردة حمراء متفتحة! يمنحها إلى أمي وهو لا يلتفت إليّ أنا.. لا يلتفت إلى الحجاب الحريري الأحمر والدريل الأبيض المنسدل من أسفل السترة الجينز القصيرة.. لا يلتفت إلى وسطي المنعقد في حزم وعينيّ العسليتين الواسعتين.. لا يلتفت إلى شفتي اللتين أوشكتا أن تسبحا باسمه الذي لا أعرفه.. لا يلتفت إلى كل هذا ويمنحها لأمي!

يومها نعتته أمي بالظريف البسيط ابن البلد الذوق.. يومها لأول مرة أفرح بنعت أمي لشاب خلقه الله في هذا الكوكب.. ويومها ملأتني الغيرة على الوردة الحمراء وهي تقبع في يد أمي طوال الطريق من البيت إلى منزل خالتي.. وكيف اخترقت كلماتها أسوار غيرتي وهي تحكي عن الشاب اللطيف جارنا الجديد الذي أهداها وردة حمراء بلدي في منتهى الجمال والذوق!

أقف أمام المرآة من جديد أتأمل نفسي.. أرفع خصلات شعري الطويل فوق رأسي وأبتسم للمرآة.. ثم أمسك هاتفي وأصور نفسي خمس صور أتخذ فيها أوضاعًا مضحكة.. ثم أنظر للصور وأتساءل حائرة.

لماذا لا ينظر هو مثل البقية؟

كلهم ينظرون.. بدير المحامي القصير ذي الشارب الكث الذي يحميه من السقوط على ظهره.. فهمي الشناوي الذئب العجوز زير النساء.. حتى الشيخ أمين ينظر ويستغفر الله بصوت مرتفع حتى يعرف الجميع أنه متعفف عن النظر إلى مفاتن النساء بينما هو يقتلها تحديقا.. بل إن أشرف ممتاز ينظر.. أشرف ممتاز الذي لا يهوى عالم النساء ولا يحب الاقتراب منه ينظر!

أقولها لنفسي أمام المرآة مندهشة.. أشرف ممتاز ينظر إليّ وأنت لا.. كيف؟!

يعجبني شكل وجهي وأنا مندهشة فألتقط له صورتين.. ثم أجلس في كسل أميرة متوجة فوق الأريكة انظر إلى صفحتي على فيس بوك.. أوزع الكلمات والضغطات الزرقاء المعجبة فوق رؤوس رعيتي.. ثم أقلب في الصور باحثة عن صورة جديدة تصلح لتغيير صورتي الشخصية.. أمل منهم ومن الصور فأضع الإسدال القطني الأبيض فوق رأسي وكتفي وأخرج إلى

الشرفة.. أغلقها خلفي جيدا ثم أمد يدي خلف مكتبة خشبية عتيقة علقها أبي يوما هناك ليضع فيها كتابًا أو كتابين.. وأبقيتها أنا معلقة حتى تصلح مخبأ لصديقاتي ذوات الرائحة النفاذة وطعم النعناع المدخن!

أشعل السيجارة العطرة وأخفيها خلف سور الشرفة الحجري.. ألتقط أنفاسا قليلة وأخرجها وأنا أراقب الطريق في شغف.. منذ صغري وأنا أحب المراقبة.. منذ أن كنا نقيم في بولاق في منزل جدي لأمي.. كنت أسجل في دفتري الصغير مواعيد وصول بائع حب العزيز وبائع العرقسوس وعربة الفول الصغيرة.. أسجل فيه مواعيد دخول وخروج الزبائن لصالون عم حسين الحلاق.. وكم كيلو من الموز باعها سيد الفكهاني..

لذا وأنا أراقب الشارع الهادئ رأيت ذلك المخبر!

أنا لست هيستيرية ولم ينعتني أحدهم بهذه الصفة من قبل.. هناك على ناصية التقاطع مع شارع الأشجار يقف جذع شجرة سميكة يرتدي قميصا أبيض قصير الأكمام وبنطالا قماشيا أسود يبرز من تحته حذاء ميري ضخم مقاس ثمانية وأربعين على الأقل.. يقف ممسكا بسيجارة سوبر طويلة وهاتف محمول قديم يضع كل تركيزه في شاشته الصغيرة.. فلتقطع ذراعي كلها من منابتها لو لم يكن مخبرًا!!

أدرت رأسي نحو امتداد الشارع لأجد ذلك الرجل يتكرر بنسخة أصغر حجما عند سور منزل السفير الذي لا أعرف علم دولته على امتداد البصر.. نفس القميص والبنطال!

نفثت الدخان من جديد وعلى عيني تلتمع تلك النظرة الجذلة.. إذن فأحدهم هنا قد أقلق منام الشرطة وأيقظها من غفوتها لتدفع بزوج من المخبرين.. هناك مرح قادم إذن!

حانت مني التفاتة إلى مدخل البناية لأجدهما يخرجان منها معا.

أسقطت السيجارة في الشارع، وكادت عيناي تخرجان من محجريهما عندما رأيتهما يتمشيان نحو السيارة الزرقاء الملقاة بإهمال موازية للرصيف المقابل.. يضحكان بصوت يصل صداه إلى أذني في الطابق الخامس على

ارتفاع يزيد عن الخمسة عشر مترا.. كيف يحدث هذا؟
أشعلت لفافة أخرى وأنا أضحك في سخرية.. وهما يدلفان إلى السيارة الحديثة الباهظة الثمن ثم تنطلق بهما.

ـ ولا كان باين عليك.. إخص.

أقولها لنفسي والتقزز يطفو فوق أمواج حروفها.. أبصق فوق السور كسائق ميكروباص محترف.. أعبث بأظافري الطويلة المطلية بلون بنفسجي براق.. وأنا أنفث دخان السيجارة النعناعية في شراهة علّ طعمها الحراق يشفيني من نوبة القيء التي أرغب فيها.

الآن عرفت لماذا لا تنظر كالبقية..

الآن عرفت لماذا لا تهتم لشفتيّ وعينيّ ورقبتي.. لماذا لا تلفت استدارة وسطي عينيك الواسعتين.

فقط عرفت عندما رأيتك تخرج ضاحكا مع أشرف ممتاز.

الآن.. فهمت الآن كل شيء!

* * *





أمين علم الدين

رحمك الله يا أم عصام..

أتحسس بإصبعي تجاعيد الصورة عديمة التلوين.. الصورة التي تُظهر وجهها الخمري المستدير بلون رمادي فاتح.. وعينيها السوداوين بلون رمادي غامق.. شعرها القصير وابتسامتها الهادئة التي تشع بريقا يظمأ الساري له.

أين في عينيك ذياك البريق يا علوية..

أحبس دمعة بدأت تتمرد على سجنها خلف أسوار عيني.. دمعة لم تقوَ على التمرد يوم رحلت علوية.

أمسح دمعتي بطرف إصبعي فتُطرف عيني من انعكاس الضوء على الفص النائم فوق الخاتم الفضي.. الخاتم الذي يلتف حول إصبعي الخنصر. سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام.

أمسح بأصابعي لحيتي الشهباء.. شعيرات بيضاء تغزو منتصفها وأطرافها معلنة تسيدها للوضع هنا.. ثمانية وخمسون خريفا مرت يا أمين حتى صارت كل الفصول خريفا.

أودع الصورة الرمادية من جديد صندوق الذكريات الخشبي الساكن دوما في رف دولاب الثياب الضخم المصنع من أجود أنواع الزان بأيدي أجود نجاري دمياط.. الصندوق الذي لم يبقَ لي سواه من زمن عفا عليه الدهر ومضى.

يصدح صوت المسجل الذي وضعوه بجوار ميكروفون المسجد الصغير في البناية التي تقع خلف بنايتنا الفخمة، معلنا أن الوقت حان لأن يلتقي العبد الآثم ربه طالبا عفوه.. طالبا ستره ورضاه.. خائفا من عقابه مستعيذا به من ظلمة قبره.

أفتح صنبور المياه في الحمام.. يختلط صوته بصوت تلك الموسيقى الصادحة من الطابق الأول.

ألا حرمة للأذان هنا في هذه البناية؟!

ـ لعنة الله على المعادي وعلى سكنة المعادي.. كانت ما لها شقة فيصل يا علوية؟

أستغفر الله، لاعنا في سري اليوم الذي ألقى بي في طريق ذلك السمسار.. اليوم الذي قادني فيه بتأييد من المغفور لها وابنها الحيلة إلى هذه البناية.. لأودع مضطرا كدّ عشرة سنوات في بلاد آل سعود في ثلاث غرف وحمامين ومطبخ في شارع تحيطه الأشجار ومنازل السفراء وكافيتريات أبناء الذوات.

ـ حلوة الشقة وشرحة كدا يا حاج.

ـ ما لها شقة فيصل يا ولية.. أهي قريبة من الشغل وعلى قدنا وفي ظهر البيت مسجد.. ما لنا احنا بالمعادي وسكنتها؟

ـ يعني انت مستخسر في العيل الحيلة سكنة ولاد الناس يا حاج؟

ـ يعني احنا ولاد شوارع يا ولية؟ إتق الله وخلي لحافنا على قد رجلينا.

عوجت شفتيها الممتلئتين ورحلت بعينيها إلى عالم لم تطأه غيرهما قبلا.

ـ إحنا بقى لنا تمن سنين بناكل طقة ونسيب التانية في الخليج عشان الواد يكبر، ويبص يلاقي نفسه بيقول لزمايله في الجامعة انا ساكن في كعبيش ويبص كل يوم الصبح على خرابة ويصحى على صوت بياع الفول والبليلة؟

ثم تضع غطاء وجهها وتتنحنح في صمت ناعية بختها المائل ونصيب عصام في أبيه الذي لا يقدر على مفارقة شوارع كعبيش الزلقة الرطبة.. والارتقاء عاليا إلى جنة المعادي.

علوية كانت أما وزوجة.. أما تمارس دورها بكل إخلاص في تربية ابنها وتنشئته.. وزوجة تمارس دورها في إحراق أعصاب زوجها وقتله كمدا!

رحلت الأم.. ورحل الحيلة.. وبقيت أنا هنا بين الحوائط المصبوغة بلون ورق الخس أنعى نفسي وشبابي الذي ولى.. وديني الذي أقبض عليه جمرًا متقدًا يؤرق نومي ليلا نهارًا.

أترانا بلغنا آخر الزمان يا أمين.. أترانا بلغنا الزمن الذي أخبر عنه رسول الله.. وإذا لم يكن ما تراه هو آخر الزمان.. فماذا يكون.. ماذا يكون الزمن الذي تصدح فيه الموسيقى صاخبة عالية من شقة فتاة وحيدة بلا أب ولا أم.. أو ماذا يكون الزمن الذي تمشي فيه فتاة في عشرينياتها كاسيةً عاريةً كسنام البخت وأمها جالسة في بيتها لا تدري من أمرها شيئا.. تتمايل بجسدها الفاتن داعية كل ذي مأرب إلى مأربه.. أو ماذا يكون الزمان الذي يصافح فيه المسلم غير المسلم مقبلا رأسه في إجلال.. كما فعل ذلك الشاب الأسمر نابت الذقن مبعثر الثياب؟

وكأن جهنم كانت تنقص حطبا كي تستعر!

أراه واقفا كل صباح ممسكا بيد ذلك النصراني ضيق العين أصلع الرأس يتبادلان الضحكات مجلجلة في مدخل البناية الرخامي.. وحوارهما مرتفع الصوت يخترق أذني وأنا أخطو فوق السلالم الرخامية المرتفعة هابطا إلى الشارع.

ـ صدقني يا أستاذ ألبرت وربنا الموضوع ده بيموتني من الضحك كل ما افتكره.

ـ ده انت لسه ما تعرفش حاجة عن الموضوع.. إحنا نتقابل بالليل عندي في البيت والسهرة تحلو بقى.

يتقابلان معا.. وتحلو السهرة.. وبماذا تحلو السهرة يا ترى.. أتحلو بكاسين مما انكسرت زجاجته يوما أمام باب شقته الذي ـ من غضب الله علي ـ يقع أمام شقتي في نفس الطابق.. أم تنضم لهما فتاة الموسيقى عديمة الأب والأم سافرة الثياب.. أم ذلك القصير كث الشارب محام العاهرات وتجار السم

الأبيض.. أم ذلك الشاب الذي يكتب قصص الأبطال السكيرين والفتيات العاريات.. أي حفل ماجن يدور في شقة ذلك الألبرت؟!

يا إله السماوات والأرض ماذا أصابنا.. والله إنها لنهاية الكون!

أذكر يوم ارتدى عصام ذلك الجينز الضيق والقميص الضيق اللامع وهو ذاهب إلى عمله وعاد يومها في الثالثة صباحًا بعد أن ذهب لمشاهدة فيلم سينما.. أذكر عصا المقشة التي تحطمت فوق رأسه وألقته في الفراش أسبوعا ينزف دما ووصمته بخمس غرز في أعلى رأسه.. كيف يهنأ الأب بنومه وولده يجالس السافرات والسكيرين ومؤلفي الروايات؟!

أتذكر يوم وقف يبتسم لتلك الفتاة التي تسكن في طابق البناية الأول.. الفتاة التي تسكن بمفردها بلا أب ولا أم.. الفتاة التي لا يسلم امرؤ من صفعات لسانها السليط ولا كلماتها الحاضرة السافرة كسفور بنطالها الجينز المرسوم بقلم الشيطان حول فخذيها.

أتذكر كيف منحها زهرة قرمزية يانعة مبتسما في جرأة ناعتا صباحها بالمزهر كلون خديها.. فأزهر خداها خجلا! أو تدرين ما الخجل يا ربيبة الشياطين.. وإن كنت بلا أب ولا أم.. فأين أبوك يا هذا؟!

- ويا ترى الوالد عايش يا أستاذ؟

- الحمد لله.

- أمال ما بنشوفوش يعني؟

- وهتشوفه ليه يا عم أمين.. هو في بيت العيلة وانا بروح له.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

أتمم حوقلتي فيرمقني بطرف ساخر من عينيه العسليتين.. ثم يهز كتفه النحيل العريض ويهم بالصعود حينما أعترض طريقه بذراعي المشعر البارز من كم القميص القصير.

- في حاجة يا أستاذ أمين؟

- إنت مش هتصلي العصر؟

ـ إن شاء الله هصليها في البيت.. أغير هدومي بس واكل لقمة كدا والحق العصر.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.. طب ما تصليها معانا جماعة في المسجد احسن.

أزاح ذراعي بكف يده المعروقة وحدجني بنظرة واسعة مفتوحة لا توحي بشيء سوى الخواء.

خواء يشبه ليلا صحراويا مظلما.. خواء موحش كظلمة قبر مطبق.

ـ اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر.

ـ في حاجة تانية يا عم أمين؟

ـ هو انت مسلم يا ابني؟

خواء يطبق كفيه فوق رقبتك ضاغطا على أوردتها العجوز المنهكة.. ألم يقفز متراقصا فوق تلال روحك.

ـ ليه؟

ـ هو إيه اللي ليه.. بقول لك انت مسلم؟

ـ وانا بقول لك ليه.. بتسأل ليه.. هيفيدك بإيه تعرف اذا كنت مسلم ولا لأ؟

خواء يطبق كفيه فوق رقبتك ضاغطا على أوردتها العجوزة المنهكة.. ألم يقفز متراقصًا فوق تلال روحك.

خواء لم أعهده في عيون من عرفتهم طوال ثمانية وخمسين خريفًا..

ـ أصلي عمري ما شوفتك في المسجد حتى يوم الجمعة.

ـ هو انت لازم تشوفني عشان ابقى مسلم؟

ـ إذا رأيتم الرجل يرتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان.

ـ إذا رأيتم.. مش إذا رآكم أبو عصام بس.. صح ولا إيه؟

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله

خواء أنهاه بابتسامة ساخرة باهتة.. هي آخر وقع تركه مطبوعا فوق روحي قبل أن يغادر البناية خارجا.

خواء ظل يطبق على روحي مصحوبًا بابتسامته التي تليق بإبليس اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا يا رب العباد.

ابتسامته الساخرة الوقحة.. تذبح روحي وتترك دمي يسيل فوق بلاط الميضة الخشن، حتى وأنا أردد تكبيرة الإحرام خلف إمام المسجد.

الله أكبر.

شاب في مقتبل عمره وفتاة بلا أب وأم إذن فهي الخطيئة الكاملة.

سمع الله لمن حمده.

شاب لا يسجد ولا يركع يقبل رأس نصراني وتحلو سهراتها فهي الخطيئة الكاملة.

الله أكبر.

شاب لا يتزوج حتى شارف الأربعين إذن فهي الخطيئة الكاملة.

الله أكبر.

شاب لا يخشع لذكر الله ولا يوقر رجلا يقول اتق الله وأقم فرضه، هي بحق لا إله إلا الله الخطيئة الكاملة.

السلام عليكم ورحمة الله.

رئيس قسم في الشهر العقاري يقيم وحيدًا بلا زوجته المغفور لها ولا ولده الذي اتبع خطاه فسافر ينهل من أنهار الغربة.. ودرج يفتح لجنيهات تبل ريقا قد جف من طول الحاجة.. وجمر مقبوض عليه في كف يد يابسة خشنة.

تقبل الله يا شيخ أمين.

* * *



ألبرت موريس

(....امنحنا أن نكمل هذا اليوم المقدس وكل أيام حياتنا بكل سلام مع خوفك، كل حسد وكل تجربة وكل فعل الشيطان ومؤامرة الناس الأشرار، وقيام الأعداء الخفيين والظاهرين، انزعها عنا وعن سائر شعبك وعن موضعك المقدس هذا)

أتم صلواتي راسما بأطراف أصابعي صليبي على صدري الملتهف لراحة ربي وسكينته وسلامه.. ربي الذي وعدني بملكوته إذا احسنت إلى عباده وإلى الضالين من قطيعه حتى يهتدوا إلى نوره.

فينوس كانت تجلس هنا.. تغمض عينيها فتبدو فاتنة كغزال شارد.. تتلو صلاتها فتبدو كقديسة من عصور الآلام.. كتب عليها الرب الآلام فعاشت دهرا مثقلا بالمرض والحرمان من ميراث الدنيا طمعا في ميراث السماوات.. أكاد أراها تسبح مع النورانيين والقديسين في رفقة يسوع والسلام يحيط بها كأقواس من النجوم تحيط مجرة حالمة.. كان تعبيرها الطفولي الذي لا أفهمه عندما تسرح عيناها الزرقاوان في سماء الغرفة وهي نائمة فوق صدري كطفل رضيع.

ـ أنا مجرة حالمة يا ألبرت.. وانت نجومي اللي من غيرها ابقى ثقب اسود يلم أحزان الدنيا.

ـ قلت لك قبل كدا انا كيميا مش فيزيا يا فينا.. كلميني عن البوتاسيوم والكربون وانا هفهم على طول.

تضحك.. كطفلة ماجنة عابثة وتحتضنني كاتمة حشرجة صدرها من سعال دموي لم يتوقف سعيره طوال الليل.

تضحك.. فتشع الغرفة بريقا وتضيء ألف ألف شمس في محيطها المسكون بأيقونات العذراء المباركة وصورة لقديستي تحمل في يدها وردة وتبتسم لكاميرا أحملها أنا!

أخرج من شقتي لأجد كل شيء في موضعه.. أمين الذي يصر على وضع سلة مهملاته بلا غطاء بين بابي شقتينا المتجاورتين فتبعثرها القطط اللاهية بحثا عن بقايا دجاجة لن تجدها في سلته لأنه لا يأكلها.. ولا في سلتي لأنني في وسط أيام صيامي الشاقة.

اختبارك يا أبانا في ملكوتك لعبدك الفقير صار فوق احتماله.. فقد فينوس أم الصيام أم السكن في طابق يسكنه ذلك الأمين اسما وليس صفة.

لا أقدر إلا أن ألعنه يا أبانا فماذا يمنعني عنه؟ علمني يسوع أن أدير خدي الأيسر عندما أضرب على الأيمن.. ولكن ليس أمين من يدار له خد ولا حتى يترك له الأول كي يضربه.

اليوم هو الجمعة.. وهو بعد نائم لم يقم لصلاته.. إذن فلنوقظه من سباته لعله يضيق ذرعا بي ويرحل من جواري.

أدق بابه في إصرار عازما على تحويل سلامه النفسي إلى فتات زجاج نافذة قذفها طفل عابث.. طفل كالذي تمنته فينا يوما ليمنحني قطعة منها تؤنس وحدتي بعد سفرها إلى فردوسها

لماذا أراه في كل مكان؟ لماذا صار يؤرق عليَّ صباحي ومسائي.. لماذا أراه في عيون كل من أقابل في حياتي.. منذ أن كنت طالبا في كلية العلوم حتى أصبحت مدرسًا ومربي أجيال وأمينًا هو ركن أساسي في معادلة تفاعلاتي.

أمين + أي شيء + مع التسخين= كل ما هو سيئ وشرير.

أراه في عيون طلبتي الذين لا يعرفون لي لقبا إلا (الأستاذ ألبرت المسيحي).

أراه في عيون زملائي الذين يلقبونني بالـ(الخواجة موريس بتاع الكيمياء).

أراه في عيون ذلك الوغد المداهن إسماعيل الذي يلقبني بالـ(المقدس ألبرت).

أراه في عيون فاتنة الطابق الأول ربيبة بيوت المسيحين.. الذين لم يعاملوها يوما كما يعاملني أبناء جلدتها.

حتى ذلك المنحط أشرف لا ينفك ينظر لي على أني نكرة في عالمه المليء بالرذيلة والخطيئة!

أدق الباب ولا يبدو أنه سوف يجيب.. هو يراقبني ويعلم أني أذهب صباح كل جمعة إلى الكنيسة كي أحضر القداس.. يعرف أنه لو تركني أدق بابه لن ألحق بالقداس الذي أفوته كل أحد لأن الطلبة لا يذهبون إلى مدرس لا يعطيهم درسا خصوصيا أيام الأحد.

حتى ذلك الفتى صار نسخة منهم.. كان في بداية أيامه فالبناية الفخمة يدق بابي كل مساء ملقيا تحية المساء مادا يد العون في كل شيء.. كان يأتي ليؤنس ليلي المظلم الوحيد بكوب شاي أو فنجان قهوة طالبا مني أن يسمع مقطوعة تلعبها أصابعي القصيرة فوق البيانو مثل ما كانت فينا تطلب كل مساء.. يحكي لي عن فريدة التي تدعوه لحضور حفلة الموسيقى إلا أنه لا يحب تلك الموسيقى الصاخبة عديمة المعنى التي يغنيها فتية مبحوحو الصوت عديمو الموهبة!

الآن أصبح لا يأتي ولا يطرق الباب.. أصبح لا يستمع إلى أصابعي وهي ترقص فوق أصابع البيانو.. بل إني صرت أرى لحيته النابتة في إهمال محبب أكثر تنظيما وطولا.. حتى عيناه العسليتان صارتا خاويتين كغرفة فينا بعد رحيلها!

ـ أيوة من اللي عالباب؟



صوت أمين الخشن الذي يمطر أحماضًا كاوية فوق أذني.
ـ صباح الخير يا أستاذ أمين.
تنزاح ضلفتا الباب كاشفة عن وجه كالح تحيطه لحية سوداء وعينان سوداوان تحيطهما هالة رمادية.. بواقي الخس من سهرة طويلة مع طبق فول بالبصل تبدو بقاياه ظاهرة وسط القمامة الملقاة.
ـ خير؟
وكأني مندوب مبيعات لحوح.
ـ كنت عايزك شوية بس.
ـ معلش انا مش فاضي دلوقتي.
حروف كلماته تفوح منها رائحة فمه الذي لم يتخلص بعد من روائح النوم الكريهة.
صمت غريب..
ـ طيب يا ريت بعض إذنك تبقى تغطي الزبالة بتاعتك كويس عشان القطط مبهدلاها
ـ اللهم طولك يا روح.. اتكل على اللي خلقك وشوف وراك إيه.
ـ ياريت تتكلم بأسلوب احسن من كدا شوية.
باب يصفع وجهي صفعا.. وصمت جديد.. صمت لا يقل إزعاجا عن ذلك الشعور في مؤخرة رأسي أن هناك من يقف خلفي هناك على السلم.
ـ صباح الخير يا أستاذ ألبرت.
أجفلت ملتفتا خلفي في حدة لأراه واقفا في قميصه الكاروه الواسع.. عينه تلمع في جذل كأنه ذاهب إلى لقاء محبوبته.
ـ صباح الخير.
ـ إنت مستني حاجة.
ـ مستني الحيوان اللي جوا ده يبقى بني آدم ويفتح ويعبرني.
يتقدم ناحيتي وهو ينظر إلى تلك الحزم المتناثرة فوق المسافة بين شقتي وبين شقة ذلك الأستاذ.
ـ الزبالة تاني؟

ـ الزبالة تاني وتالت وعاشر.. أنا مش رايح الكنيسة بقى وقاعد له هنا لما اشوف أخرتها.

ـ شوية شوية بس يا أستاذ ألبرت..

ـ طبعا وانت خسران ايه.. ما انت زيك زيه.. ربنا يكتب لنا هجرة ولا مصيبة تاخدنا من البلد دي.

عيناه الخاويتان المظلمتان.. وابتسامته الساخرة المقلقة.. إصبعه الذي ارتفع إلى ما أمام نظارتي الصغيرة المستديرة.

ـ هو لوحده يعلم المصيبة جاية إمتى.. ما تستعجلش يا أستاذ.

ثم منحني ابتسامته الآثمة.. يهوذا يلقي بكلماته الأخيرة ثم يرحل في صمت.

وأنا أفتح باب شقتي ثم أركله خلفي.

كنت أعلم أنه منهم.

منذ أن تودد لي وتقرب مني وأنا أعرف أنه منهم.. منذ أن تقرب مني مدعيًا حب الموسيقى وأنا أعرف أنه منهم.. والآن كشف لي عن وجهه الحقيقي.. الوجه الذي رأيت بشائره عندما كان عائدا من الشارع يتأبط ذراع ذلك الأمين اسمًا وليس صفة.. يتهامسان ويتبادلان الضحكات وهما يمران بجوار بابي النصف موصد.. ضحكة عالية قهقه بها الفتى.. ضحكة ضبع آثم أوشك على التقاط بواقي الأسد.

العرق يتصبب فوق جبيني.. يداي لا تقويان على حمل مفاتيحي المربوطة في صليب فضي أهدته لي قديستي قبل رحيلها، العرق يزيد وقلبي الضعيف لا يريد الصمت أو الجلوس كطالب مؤدب في الصف الأول من فصل نظيف براق نظف لتوه بالفنيك الطازج في مدرسة تحيطها الـ...

أمين + الغريب + تفاعل بارد = مصيبة تأتي قريبا جدا.

ـ أيوة يا محب.. أنا ألبرت.. تعال بسرعة عايزك ضروري جدا.. بسرعة أرجوك.

* * *



فريدة عبد الحميد

Das Auto

يلمع الإعلان أمام عيني فوق لوحة كبيرة على الطريق الدائري.. يلمع ليمنحني قناعة جديدة اكتسبتها من رحلتي اليومية من الشركة التي تتخذني مسئولا عن قسم خدمة عملاء - منطقة نفوذها في ألمانيا - إلى شقتي المظلمة ذات الغرفتين في المعادي.

حكمة اليوم.. لا تمتلك سيارة في هذا البلد حتى ولو كانت Das Auto.

تلمع عيناي كلما رأيت حروف كلمات من تلك اللغة التي أعشقها تستقر جوار بعضها.

تلمع عيناي ثم تسرحان في ملكوت بعيد.. ملكوت بارد يقع على بعد خمسة آلاف كيلومتر في وسط تلال خضراء تحيطها غابات هانز وجريتل.

- فراو ناديا.. هو ليه الدويتش صعب أوي كدا؟

- entschuldigung.. لو كانوا هيعرفوا انك انتي اللي هتدرسيه يا روحي كانوا خلوه اكتر رقة.

نادية الألفي.. حفيدة محمد بك الألفي مستشار الملك فاروق السري ووسيطه عند هتلر.. وزوجة الملحق الثقافي المصري عبد الحميد رفعت. أبي

لا أعرف أما سوى نادية.. رحلت أمي وأنا ما زلت أمشي مستندة لطاولة

الشاي في ركن حجرة الصالون التي كانت تزين شقتنا في المنيل.. فتحت عيني على اتساعها في شقة هادئة بشارع يمتلئ بالأشجار العجوزة في المعادي.. ثم بدأت أتراقص في مشيتي في أحد شوارع ميونخ، الطريق لا يتحرك منذ نصف ساعة.. يبدو أنني سأراقب هذا الإعلان كثيرا.

Das Auto

في فولسبورج لا يحبون سوى فولكس فاجن.. من كثرة عشقهم لها سوف تعتقد أن شعار المدينة سيتحول تدريجيا إلى ذلك الشعار ذي الحرفين.

في ميونخ.. مونشن كما يسمونها.. يعشق البافاريون إنتاجهم الفاخر من البي إم دبليو.. في ميونخ تعرف جيدا كيف تكون ألمانيا.. في فرانكفورت أنت ألماني جدا.. تعمل كادحا كترس فولاذي في ماكينة عملاقة.. وتفوح منك رائحة البيرة وأنت تغني فرحا في ليلة الأحد.

وفي الطريق الدائري.. تفوح منك رائحة الملل خمسة أيام في الأسبوع.

هناك في المعادي.. شارع تحفه الأشجار العجوزة.. وبناية يجلس أمامها إسماعيل الفلحوس ـ كما كان أبي يسميه ـ وطابق أول تقع على عتبته شقة مليئة بذكريات فتاة كانت تعقص شعرها المموج.. ثم أصبحت تصففه أسبوعيًا لأن مديري خدمة العملاء لا يحبون الشعر المموج

وطابق ثالث.. يقطن هو به.

ثلاث ساعات بقت على ميعاد طرقه اليومي على باب الشقة.. طرقات بها من الخجل ما بها من الجرأة.. وصوت تنحنح حلقه الملوث بدخان سيجارة المساء في أحد المقاهي.. وحروف اسم فريدة تتطاير من بين شفتيه كنحلات تلدغ ولا تسم.

أفتح الباب وقد عقصت شعري المموج أسود الخصلات.. ما زلت بقميص العمل الرسمي.. خالعة حذائي ذي الكعب المرتفع الذي سيقودني قريبا إلى أفخم عيادات العظام.. نصف فتحة للباب تكفي.. لو فرج الباب على آخره لما أغلق أبدا حتى الصباح.

قميصه الكاروه الواسع.. ولحيته النابتة القاتلة.. وعيناه العسليتان الراجيتان

من فيض الكريم محبة.. وقلبه الذي ينبض بشفرات تضرب أوتار قلبي فتعيق عمله كما يجب..

- مساء الخير.
- عندك تأخير خمس دقائق النهارده.
- شكل يومك كان مقرف.
- باين على وشي القرف يعني.

لمعة في عينيه فيقفز قلبي مرحا.. وشبح ابتسامة يبعث بشرا من جديد فوق غمازاته الغائرة.

- طيب انا هطلع بقى احسن الشيخ أمين ولا المقدس ألبرت يعلقونا.
- وساعتها انا وانت أخيرا هنبقى السبب في توحد عنصري الأمة.

تغور غمازاته فأسقط فيهما غارقة.

- طيب.. أنا كنت حابب انك تسمعي دي.

يناولني من بين أصابعه كيس الحلوى اليومي.. أسطوانة تحمل حروفا كتبت بخط يده المنمق الصغير.

- دي إيه المرة دي.
- ما تقري اللي مكتوب وانتي تعرفي.

حروف منمقة كتبت بألمانية ركيكة.. كتبت لتوها بخط يده المنمق.

Jeden Tag gibt es etwas, was Sie denken, Sie macht lebend

دائما هناك شيء يجعلك تشعر أنك على قيد الحياة

أرفع وجهي نحوه فلا أجده.. يأتي كالطيف ويرحل كالطيف.. يمنحني

كل يوم أسطوانة فضية عليها كلمات بلغة من تربت بينهم.. ويرحل تاركا أذني تنعم بالحلم المتدفق من سماعات مشغل الأسطوانات الحديث.

أتراقص فرحة وأنا أحتضن كيس الحلوى.. أعشق ما تمنحه لي الموسيقى من لذة.. أقفز فرحا وأهيم عشقا بضربات إصبع ماهر فوق شرائح الحلم البيضاء والسوداء.. يومًا ما صعدت بالخطأ إلى الطابق الثاني وهممت بفتح باب شقة الأستاذ ألبرت.. لأسمع صوت ملاك يشدو بنغم يختلط بضربات أصابع يغار منها بيتهوفن.. سهمت وجلة أمام الباب فلا استطعت رحيلا ولا استطعت بقاءً.. أقف على الحافة بين الهبوط إلى شقتي الكئيبة والصعود على سلم الحلم إليه.. وهنا تشدو آلهة الجمال بلحن لا تدركه الآذان.

لماذا يظهر الشناوي بك الآن.. أليذكرني بأن القبح ما زال هو السيد.. لماذا أسمع صوته الخشن يدوي في الثالثة صباحا في قلب المبنى العجوز؟

ـ الواد ده لازم يتربى يا بدير باشا.

ـ معاليك ولا تضايق نفسك.. دي عيال مقاطيع كلها وانا عارفهم كويس.

ـ هو فاكر نفسه ايه.. محدش هيعرف يقف له هنا.

ـ مسيو أشرف S'il vous plait الموضوع ما بقاش ينفع فيه سكوت لازم كلنا نشوف حل وإلا الأشكال الـExotique دي هتبوظ لنا العمارة.

ـ دلوقتي مزيكا وورد وزيارات بعد نص الليل، استغفر الله العظيم ناقص ايه تاني كدا؟

ـ ده كان بيهددني يا فهمي باشا.. يقول لي ما تستعجلش عالمصيبة اصلها جاية جاية.

ـ مصيبة.. لا ده موضوع ما يتسكتش عليه أبدا.. أنا هعمل اتصالاتي فورًا.

اجتمعت جوقة الغربان ناعقة في تناغم لتفسد لحني الذي يمنحني سببا للحياة.

لماذا أسمع صوته كأنما يهمس لي الآن بكلمات ألقاها على مسامعي نيابة عن صلاح عبد الصبور.

كهان الكلمات الكتبة
جُهّال الأروقة الكذَبة
وفلاسفة الطلّسمات
أقعوا - في صحن المعبد - مثل الدببة
حكّوا أقفيتهم وتلاغوا كذباب الحانات
لا يعرف أحدهمو من أمر الكلمات
إلا غمغمةً أو همهمةً أو هسهسةً أو تأتأةً أو فأفأةً
أو شقشقةً أو سفسفةً
أو ما شابه ذلك من أصوات
وتسلّوا بترامي الفقاعات!

❊ ❊ ❊





سيف عبد الفتاح

(١)

ـ واشمعنى عمارة ٦٤ يا مصطفى؟!

ـ عشان زيها زي ٦٥ وزي ٦٣ يا باشا.. مش لازم كل حاجة يبقى ليها فلسفة في الحياة عشان تعدي جوه دماغك يا سيف.

(٢)

أجلس متأكا على كرشي البارز أسفل قفصي الصدري.. كرشي الذي أستخدمه منذ أن جلست خلف مكتب بائس في نقطة شرطة تقع على حدود محافظة قنا مع الوادي الجديد.. منطقة نائية لا يحدث فيها حتى حادثة سرقة لخروف شارد أو ذيل حصان مقصوص.. أتناول إفطاري كل يوم حامدًا الله وشاكرا فضله وأقرأ جريدة الأمس.. أقلب صفحة الحوادث لأرى بعيني ثلاثة ممن كانوا دفعتي يسقطون برصاص هذا وذاك وأثناء مطاردتهم لهذا وذاك.. فأحمد الله وأشكر فضله أن أبقاني حيا كي أرعى أهلي وأطفالي.. ثم اكتشف أنني بلا أطفال لأنني ببساطة لم أتزوج بعد فأضحك ملء فمي ورذاذ العسل الأسود يتطاير فوق صفحة الجريدة.

أربعة أعوام انتظرت نهايتها كثيرا حتى وجدت نفسي أجلس في حجرة مكتب آخر في غرفة نصف مكيفة ـ التكييف موجود لكنه يعمل نصف اليوم فقط ـ خلف طاولة مكتب نصف مطلية في قسم المعادي.. وتعلو الطاولة لوحة خشبية نقش عليها بيد فنان.

مقدم/ سيف عبد الفتاح

رئيس المباحث

فأبتسم في رضا كلما أتذكر اليوم الذي منحوني فيه الإفراج المؤقت من خدمة الوطن وألقوا بي خلف مكتب نصف مطلي يئن كرسيه من ثقل وزني وأنا أستبدل إفطاري الصعيدي الغارق بالسمن البلدي بإفطار المدن الغارق بزيت التموين.

أقلب الأوراق أمامي بلا اهتمام.. بينما قلمي الأسود الرفيع الخط يتراقص فوق مربعات الكلمات المتقاطعة القابعة في ركن خفي فوق الطاولة.

٤ رأسي.. وزير خارجية بريطانيا.

٣ أفقي.. يرنو ويعلو.

بجوارها يرقد سطر من سطور حظك اليوم فاغرا فاه ساخرا مني.

الأسد.. ترقية قريبة تدق بابك، فابتهج.

ضحكة ساخرة ساخطة مكتومة تخرج من بين أسناني الملوثة ببقايا فول المعونة الأمريكية المسوى في قدر معدني ضخم.. وضحكة ساخرة أكاد أسمعها تخرج من كرشي البارز من خلف قميصي الرمادي.

ـ إنت كدا في وضع كويس أوي يا سيف.. إحمد ربنا وبطل بطر.

ـ يا فندم انا بقى لي سنة بحل كلمات متقاطعة وبحل نزاعات على ركنة عربية ورش مية قدام البيت.. ده انا آخر مرة نزلت اعمل فيها معاينة كانت في سرقة كارفور بعد ثورة يناير واكتشفت ساعتها ان كارفور مش في دايرة قسم المعادي كمان.

ـ ده جزاتنا اننا بنريحك يا حضرة الظابط.. كنا وديناك قسم الأميرية ولا قسم بولاق عشان تخسلك عشرين كيلو في الشهر.

ـ والله يا فندم اهو تبقوا وفرتوا عليا مصاريف الدكاترة وأدوية التخسيس.

قسم المعادي لم يكن تكريمًا ولا راحة.. قسم المعادي كان تجميدًا.. سيف المتحذلق البدين الذي بدأ الصلع يأكل رأسه المستدير الراقد بلا رقبة فوق لغده المكتنز.. سيف المدعي الذي لا يحمل داخل ثمرة اللفت القابعة فوق جسده سوى عقل يعمل حتى أثناء النوم وجسد لا يعمل حتى وهو يمشي من سيارته إلى باب مكتبه.. ٣٠ كيلو جراما زائدة تحتاج إلى إزاحة حتى تصبح المسافة بين القوام المثالي وقوامك عشرة كيلو جرامات فقط.. اللعنة على الحسابات.

٨ أفقي.. كسر الكيلو جرام.

(٣)

يدق الباب فيدخل مصطفى عبد الراضي.

كثيف الشعر.. ممشوق القوام.. صحيح البصر.. يرتدي قميصًا أبيض مسترسلا فوق جسده الرياضي.. ببساطة.. هو كل ما لم أستطع أن أكونه يومًا!

ـ إيه يا سيادة المقدم.. لسه معصلجة معاك.

ـ إنت مش هتبطل تاكل فول من عند أبو نسمة.. قلت لك بيسوي الفول في مقلب زبالة وبرضه ما بتصدقنيش.

ـ كلهم بيسوا الفول في مقالب زبالة سعادتك.. ثم انت مش ناوي تبطل لعبة كل يوم الصبح معايا.. إنت ما بتزهقش سعادتك.

ـ أدينا بنتسلى يا سيادة الرائد.. بالمناسبة حلو القميص ده.. لو كويته من غير نشا مستورد هيتفرد برضه عشان الخامة دي قطن مصري مش استيراد.

ينظر إلى قميصه وإلي فيجد ابتسامتي الطفولية الجذلة تلمع على شفتي.. لعبتي التي أتفوق بها عليكم جميعا يا مصطفى.. لعبتي التي تبقيني سيف عبد الفتاح رئيس مباحث هذا القسم الممل الخالي من الألعاب.

ـ في حاجة تانية ولا كدا خلاص.

ـ اللزقة اللي انت حاططها في جنبك اليمين.

ـ مالها دي كمان.

ـ هي اللي خلتك تسيب سلاحك الميري في تابلوه العربية عشان بقى بيوجع لك ضهرك وانت سايق.. رغم يا أخي انك لو بتحطه في حزام الصدر هيبقى أسهل وأريح.

تلقائيا تذهب يده ليتحسس المنطقة المتورمة في ظهره.. اللصقة الطبية التي تظهر جلية من أسفل قميصه الأبيض عندما أولاني ظهره وهو يغلق الباب.

ـ إلا قل لي.

ـ خير يا درش؟

ـ إنت عرفت منين موضوع النشا بتاع الكوي؟

ـ الياقة.

ـ ما لها؟

ـ فيها بواقي نشا عشان المدام كانت بتكوي القميص وهي مستعجلة وما استنتش على القماش لما يشرب البخاخ كويس.. فالنشا نشفت على وش القماش تحت المكوة وهي نسيت تنضفها بطرف صباعها بس.. بتسأل على حاجات سهلة أوي يا مصطفى.. وبعدين قول للمدام ان شاليه مارينا مش هيجي من توفير ٤ جنيه في تمن النشا.

لا ليست سهلة.. ولن يلاحظها أحد غيري لأنني أمتلك عين فتاة في العشرين لا تسقط تفصيلة فيما أراه.. حتى ذرات النشا المتيبسة فوق ياقة قميص مصطفى عبد الراضي.

(٤)

الساعة السابعة والنصف ليلا

لماذا أبقى في القسم حتى هذه اللحظة؟ لأنني لا أعرف مكانا آخر أذهب إليه سوى شقتي الفسيحة في أطراف مدينة نصر.. أمي تجلس وحيدة طوال النهار أو تجلس مع السيدة أم فلان التي تأتي يوميا لتلبي طلبات المنزل من كنس ومسح للأرضيات وطبخ لسيادة الباشا الذي لا يحب طبخها الماسخ خالي الملح.. ثم ترحل غير مأسوف عليها عندما أعود إلى المنزل متظاهرا بالتعب واليوم الشاق الذي مررت به.

لذا فأنا هنا حتى يرحل الجميع وتبقى نبطشية الليل.. أتناول بعدها قهوتي الأخيرة التي تبقيني حيا حتى أعبر الطريق الدائري وأستقر في كرسي الصالون الوثير أشاهد فيلما أو مسلسلا ثم أغط في نوم مليء بكوابيس الرحيل والفقد حتى أستيقظ فجرا من جديد.

حياة ممتعة مسلية كما عهدتها دائما.. يا ليتني أعود للصعيد في الحركة القادمة.. فهذا أمتع وأكثر إثارة!

ـ إنت مش ناوي تروح.

ـ شوية كدا.. على ما تكون ام أيمن خلصت فنجان القهوة مع الحاجة وخلصت معاه الهري في سيرة فلانة وعلانة.

ـ هي مش كان اسمها ام جمعة.

ـ إنت بتركز في تفاصيل غريبة يا مصطفى.

ـ ده انا برضه.

يرسم على وجهه ابتسامة ساخرة جذلة.. فأبادله الابتسامة بأخرى متعبة منطفئة.. ثم تضيق عيني نحو نقطة في طرف قميصه فينظر لها مسرعا ثم يرفع عيني ليجدني أشاغل عيني بقراءة ملف وهمي غير موجود.

ـ إنت مش هتبطل لعب العيال ده بقى.

- أدينا بنتسلى يا درش.. ما تقعد اجيبلك قهوة معايا بدل الشاي الماسخ اللي انت شربته.

- إنت بتراقبني ولا ايه يا عم انت.. عرفت منين اني لسه شارب شاي؟

أرفع عيني نحوه مبتسما وقد أشرق وجهي.. بعض التسلية لا ضرر منها أيها التعس.

- أولا أول ما دخلت عليا المكتب شميت ريحة معسل التفاح طالعة من قميصك فعرفت انك كنت قاعد في الكافيتريا اللي في أول شارع الزهور لأنها الوحيدة اللي مقفولة وما لهاش قعدة برة عشان كدا الريحة لزقت في القميص.. وبما انك حطيت من قزازة البرفان اللي انت حاططها في العربية فالسبرتو إلى جوه البرفان اشتغل وبدأ يتطاير وياخد الريحة معاه فاظهرها اكثر.. وطبعا مدام كنت قاعد في الكافتيريا بتشيش يبقى أكيد كنت بتشرب حاجة مع الشيشة.. وطالما الكهربا كانت قاطعة عن المنطقة دي بقالها نص ساعة حسب ما بلغني من شركة الكهرباء وزي ما بتقول نقطة الشمع الناشفة اللي على طرف القميص من تحت.. فمستحيل تكون شربت حاجة طالعة من التلاجة أو مضروبة في الخلاط.. ضيف على كدا ان الكافتيريا دي بالذات بتعمل القهوة على السخان الكهربا مش على الرمالة لأن معندهاش رمالة فانت شربت المشروب الوحيد اللي ممكن يتعمل على نار الوابور الصغير اللي حاطينه جنب النصبة جوه.. الشاي.. الموضوع بسيط ومنطقي تماما يا درش.

ثم منحته نفس الابتسامة الساخرة الجذلة وقربت وجهي من وجهه عبر مكتبي الخشبي الأنيق.

- قهوتك زيادة زي.. صح؟

ـ إيه يا عبد الباقي.. هو احنا ما بقاش ورانا شغلانة غير العمارة دي ولا إيه؟

ـ سعادتك انا ذنبي ايه.. بيجيني بلاغ في القسم ولازم احوله لسعادتك عشان اللازم.

ـ طيب خلاص خلاص.. إنت ما لك بقيت عامل زي عبد الوارث عسر كدا ليه.. حط لي اتنين مخبرين عند العمارة دي خلينا نشوف أخرتها.

ـ أوامرك سعادتك

ثم أدى التحية على عجل وانصرف.

عبد الباقي أكثر صول مباحث قابلته في حياتي لا يعرف شيئا في هذه الحياة عن أعمال المباحث.. غدا سأمر من ذلك الشارع لأجد دولابين من الخشب الزان يقفان على مدخل ومخرج الشارع الهادئ فيحولان نظر كل الناس لهما.. سيتبقى فقط أن يحملا جريدتين مثقوبتين ويرتديان معطفا صوفيا في عز يونيو!

أرفع هاتفي المحمول نحو أذني.

ـ إزيك يا مرعي.. أنا سيف عبد الفتاح.. بص يا سيدي انا عايز منك طلبين اتنين.. الأولاني هتعرفه لما اشوفك كمان شوية على القهوة إياها اللي في العرب جنب مقلة اللب.. والتاني هبعتهولك في رسالة دلوقتي.. وبعدين مش تقولي يا جدع انت انك حولت خطك لشركة تانية.. عرفت منين.. لا دي تفاصيل هحكيها لك بعدين بقى.

ثم أغلق الخط وأنظر نحو الملف الذي أصبح متكدسا أمامي.

ملف تلك العمارة الواقعة بجوار تقاطع شارعي الزهور والأشجار.

ـ بايننا هنشتغل شغل بجد أخيرا يا أبو السيوف.



مرعي صديق قديم
هو رجل في عمر أخي الكبير أو في عمر أبي لو كنت أنا ابن أبي الأكبر.. تعرفت عليه يوما في إحدى (الحملات لضبط بعض الخارجين عن القانون) كما ترى العنوان اللطيف في جريدة حوادث رخيصة.. هو يعمل في مهنة ما لا تعرف لها أي أهمية سوى أنه يعمل فيها.. لكنه ذكي.. ذكي لدرجة لا تقدر على إنكارها حتى ولو كانت مؤهلاته الشكلية لا تدل على ذلك.

أجلس بجواره في ذلك المقهى الذي تفترش أغلب طاولاته وكراسيه عرض الشارع.. طاولة بلاستيكية مغطاة بمفرش أحمر مهترئ رقد فوقها كوب قهوة زجاجي وعلبة سكر وكوب شاي لم يلمسه حتى الآن.

ـ الصراحة يا سيف باشا الموضوع يقلق فعلا.

ـ من أي اتجاه؟

ـ الشارع اللي حضرتك بتتكلم عنه ولا مؤاخذة فيه سفارة في آخره وبيت سفير في أوله.. غير ان العمارة دي ذات نفسها فيها لوا أمن دولة سابق ومحامي كبير وأخ لمستشار في الكنيسة.. غير..

ـ يا سلام.. معلش يعني لو قاطعتك.. ما نص شوارع المعادي في فأولها سفارة وفي آخرها بيت سفير.. غير ان سبعين في المية من عمارات المعادي فيها لواءات داخلية سابقين.

ـ بس مش كل اللواءات فهمي الشناوي يا باشا وانت سيد العارفين.

مرعي هو بوصلة المعادي.. الدليل الهندي الصامت دائما الذي يعرف كل شبر وكل شجرة وكل ورقة تطايرت مع الريح في شوارع هذا الحي.. يخيل إلي أنه شارك في تخطيط شوارع المعادي أيام عمله في تلك الجهة التي لا يجب الإفصاح عنها.

ـ أهو المشكلة بقى ان وانا جايلك من شوية جالي تليفون من رئيس مباحث العاصمة.. سيادة اللوا عامل قلق كبير أوي في المديرية والدنيا هتتقلب قريب على العمارة باللي فيها.

ـ حقه يا باشا.. فهمي الشناوي كان منيم نص رجالة تنظيمات الجهاد والتكفير في المعتقل.. غير انه يا ما خرب بيوت ورمل نسوان الله ي... يكرمه بقى.

ثم وضع مبسم الشيشة في فمه وسحب نفسا عميقا زفره في الجو.

ـ ما علينا.. عملت لي إيه في الطلب الثاني.

ـ الفلاشة دي فيها كل حاجة عن العمارة باللي فيها.. بسكانها باللي مشى منها واللي هل عليها في آخر سنتين..

ـ تمام أوي.. يعجبني شغل المحترفين ده يا مرعي.. طيب وبالنسبة للطلب الأولاني اللي لسه قايل لك عليه.

ـ مسافة ما تشرب قهوتك يكون قدامك يا باشا..

ـ ده ازاي ده.. ده انا لسه قايل لك عليه.

أطلق ضحكة متحشرجة تشبه صوت يوسف شعبان إذا ابتلع ريقه.. وسعل بضع سعلات متتالية ثم رفع هاتفه المحمول في وجهي.

ـ على رأيك.. بس انا أول مرة اعرف انك بتعرف تستعمل التكنولوجيا الحديثة يا عم مرعي

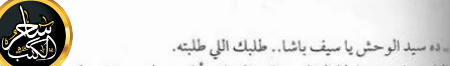
ـ يا باشا الواتس لا مؤاخذة مش كيميا.. وبيخلص حاجات كتير اليومين دول.

أومأت برأسي له موافقا وعلى وجهي ابتسامة مرهقة.. اليوم فعلا يوم مرهق جدا قياسا لروتيني اليومي الهادئ.. لقد قدت سيارتي من القسم إلى مزلقان العرب في المعادي وترجلت ماشيا لخمسين مترا حتى تقلصت أنفي مع هبوب ريح عطنة.. كأن أحدهم لم يغلق كيس قمامته المليء بعظام الدجاج وبقايا الفاكهة.. ثم ألقاه على السلم فعبثت به قطة جائعة!

ـ مساء الفل يا عم مرعي.

ـ مساء الفل يا سيد.. شد لك كرسي واقعد.

ـ معلش اصلي سايب العربوية لوحدها عند الصندوق.. أصل الولا أمير عيان وانا نازل لوحدي النهارده.



ـ ده سيد الوحش يا سيف باشا.. طلبك اللي طلبته.

التفت ناحيته محاولا التغلب على تقلصات أنفي وبطني.. شاب في أواخر ثلاثينياته تفوح منه رائحة الأكياس المفتوحة والقطط الضالة.. ذقن غير حليقة وثياب رقعت في أغلب مناطقها.. هذا هو القوة الناعمة.. جامع القمامة الذي إذا غضب وتركها أمام المنزل ليومين متتاليين.. تحولت حياتنا جميعا إلى جحيم.

ـ أهلا يا أخ سيد.. كنت عايزك في كلمتين.

ـ أؤمر يا باشا.. بس عالسريع الله يبارك لك عشان عندي مرمة.

ـ لا عالسريع ما ينفعش خالص.. إنت تشرفني بكرة في القسم نشرب الشاي سوا ونتكلم

ذكر كلمة القسم أثار بعض العكارة على وجهه متوسط الوسامة.. وعلى ساقيه اللتين بدأتا الاستعداد للرحيل.

ـ قسم ايه يا باشا لا مؤاخذة.. أنا صاغ سليم وفي حالي.. لا إخوان ولا سلفيين ولا ثوريين ولا أي حاجة.

ـ يا عرب أنا قلت اني عايز اتكلم معاك كلمتين.. هي نصاية بالظبط وهتروح.. حد جاب سيرة إخوان ولا ثوريين.. يلا هستناك بكرة الساعة ١٠ كدا.. ما تتأخرش يا سيد.

نظر إلى مرعي خائفا فأومأ له بطرف عينه مانحًا إياه الأمان، أذن له بالانطلاق.. تاركا لنا رائحة ثيابه وحذائه.

ـ طيب يا مرعي يادوب انا بقى.

ـ طب ما تقعد تشرب حاجة الأول.

ـ لا اشرب ايه.. قل اقعد رجع حاجة الأول.

وانطلقت ماشيا أتدحرج فوق الأسفلت الساخن على خلفية من ضحكاته المتحشرجة.



(٧)

- ها يا أبو السيد.. حلو الشاي بتاعنا.
- تسلم يا بيه من كل شر.. الله يبارك لك.
ثم رفع عينيه نحوي.
- خير سعادتك..
- كل خير.. عمارة ٦٤.. شارع الزهور.
- ما لها يا باشا.
- إنت هتخش لي قافية يا سيد.. عايز اتكلم معاك شوية عن عمارة ٦٤ شارع الزهور.. مش المنطقة دي بتاعتك باين.
- تمام يا باشا.
- طيب.. عايزك كدا تحكي لي شوية عن عمارة ٦٤.. إنت اكتر واحد تعرف تجيب لي بطن العمارة دي.. عايز اعرف كل حاجة عن سكانها وعن لا مؤاخذة زبالتهم.. زبالتهم دي يا سيد هي أهم دليل على شخصياتهم.. أهم حاجة تقدر تعرفك الناس دي ايه ومين.
الجدية التي رسمتها على ملامح وجهي البدينة والجدية التي دبت في أوصاله المهتزة ومفاصله السائبة كانت محركا جميلا.
هيا يا سيد.. ائتني بها وجدته في قمامة هؤلاء.

(٨)

مشعلا سيجارته الكليوبترا التي فركها لربع ساعة حتى أصبحت عروسا طائعة كما وصفها.. قال سيد الوحش:
- بيقولوا عليا يا باشا في الدول المتكدمة.. مهندس النظافة.. أنا يا باشا اللي بنظف العمارة من زبلاتها ولا مؤاخذة وبنظف الناس برضه من زبالتهم إللي جواهم.. الحاجات اللي كلوها وشربوها هم وعيالهم.. الحاجات اللي

عايزين ينسوها والحاجات اللي عايزين يبدلوها بحاجات تانية عشان زهقوا منها.. عشان في يوم من الأيام يرجعوا يزهقوا منها ويبدلوها تاني.. أنا يا باشا اللي اعرف الأستاذ اللي في الأول بيضرب كام طبق رز بلبن بعد ما بيتعشى.. وانا اللي اعرف الأستاذة اللي في الخامس امتى بتبقى كويسة وامتى بتبقى تعبانة.. وانا اللي اعرف الأستاذ اللي في التاني بيضرب كام سوجارة حشيش في لياليه الحلوة.. أنا اللي اعرف معاش الهانم اللي في الأول كام وحسابها في البنك بقى فيه كام ألف جنيه.. وانا اللي اعرف مين اللي حجر على ابوه وعايز يحجز على فلوسه.. كله هنا يا بيه.. في الصندوك الاسود ولا مؤاخذة.

وأشار بطرف إصبعه إلى رأسه.. فمنحته ابتسامة ساخرة كالتي طبعت على قسمات وجهه.. ثم امتص السيجارة في عنفوان كأنه موشك على بلعها.

ـ طب ما تسمعني حاجة كدا من اللي في قلب الصندوك ولا مؤاخذة.

(٩)

ـ الحقيقة انا مش فاهمك خالص يا سيف.

ـ غريبة.. كنت فاكر ان امي ومراة عمي وابن خالي وطنط اعتماد وعبد الباقي بس اللي مش فاهمني.

ـ إنت مش هتبطل طريقتك دي.

زفرت ملقيا بالقلم فوق الأوراق التي امتلأت بشخابيطي المتشابكة وكلماتي عديمة المعنى.

ـ لا ما انت مش كل ما اكلمك هتتخلق عليا.

ـ في إيه يا مصطفى.. إنت شايفني رايق شوية جاي تعكر لي مزاجي.. مش كفاية انك واكل بصارة عالصبح وما افتكرتش اخوك العازب الغلبان بطبق.

ـ مش هريحك واسألك عرفت ازاي.. وبعدين احنا بنتكلم دلوقتي في الزبالة.. هتدخلنا في البصارة.

ـ هم زبالة الصراحة أكتر من زبالتهم.. بس انت لو فكرت معايا في الموضوع من وجهة نظر تانية هتفهم قصدي كويس.

ثم رفعت ثقل جسدي من فوق المقعد واستندت إلى المكتب الخشبي حتى شك مصطفى من ملامحي التي تفتر عرقا أني أوشك على الموت.

ـ في ايه يا سيف ما لك.

ـ لا دول شوية وجع صغيرين في ركبتي.. المهم ان الزبالة قالت كلام كتير.

قلتها هامسا.. من بين أطراف أسناني العلوية وشفتي السفلى التي أدميتها صباحا وأنا أحاول قطم قطعة من الخبز الأسمر الجاف.. اختراع جديد من اختراعات أمي العزيزة كي تقلل من احتمال إصابتي بالسكري.

ـ يعني انت شايف ان قعدتك مع سيد الوحش خلتك تكون فكرة صح عن الناس دي؟

ـ بنسبة ٨٥ في المية.

ـ من الزبال يا سيف؟!

حركت قدمي متجها نحو النافذة التي تغطيها الستائر الحكومية المهترئة.. وحركت الستارة وأنا أنظر عبر الزجاج المشروخ إلى مدخل القسم.

ـ ما له الزبال يا باشا.. راجل شايف شغله كويس أوي.. إنت تقدر تعيش من غير سيد الوحش.

ـ إحنا ما بنتكلمش في شغله دلوقتي.. إحنا بنتكلم في سيد الوحش نفسه.. لو انت وكيل نيابة وأقوال الشهود عندك عبارة عن مذكرات زبال عن زبالة المجني عليهم.. تفتكر ممكن تعبر القضية دي.

ـ هو حد جاب سيرة نيابة ولا محاكم لا سمح الله.

أزحت الستار أكثر ناظرًا إلى بوابة القسم الحديدة متابعا بعيني ذلك الكهل ممشوق القوام.. الذي يرتدي قميصا أبيض مفتوح الصدر وعلى وجهه شارب فضي رفيع منمق.. أنف مرتفع إلى عنان السماء وأصابع طويلة تشير بأطراف عقلاتها إلى المجند الهزيل المتشح بالسواد.. فلتقطع عقلات

أصابعي إذا لم يكن هذا الرجل لواء شرطة سابق.. لا ليس لواء جيش.. لواء الجيش لا يحني أعلى ظهره وهو يمشي.. ولا يرتدي قميصًا مفتوحة أزراره العلوية.. ولا يملك كرشا صغيرا يخفيه بارتداء قميص يكبر قياسه الحقيقي بدرجتين!

ـ إنت مستني حد؟

ـ أنا.. لا ابدا.. بس الظاهر ان نظرية الزبالة هتبدأ تجيب رزقها يا درش.. روح لعبد الباقي قوله ان سيف باشا مستني سيادة اللوا.

ـ سيادة اللوا مين؟

ـ ده.

أشرت برأسي ناحية النافذة.. فأطل رأس مصطفى فوق كتفي ينظر نحو الرجل الذي تقدم ناحية مبنى القسم في عظمة وخطواته متثاقلة تشي بمثل شعبي قديم (يا أرض اتهدي..)

ـ ما عليكي قدي.

ـ قدراتك بتبهرني يوم عن التاني يا سيادة النقيب.. بس هو مش ماشي كدا عشان بيدعي العظمة.. ده أثر كسر مضاعف قديم من نحو ٢٠ سنة.. ولما حاول يمشي عليه عدل لقى العرجة هتبان أوي.. فعقليته شديدة الذكاء خليته يحول العرجة لطريقة مشي تخليه يبان في قمة العظمة والخيلاء.. وده بقى بيرجح عندي حاجة.

ـ حاجة ايه؟

ـ هتعرفها حالا.

صوت نقرات على الباب.. قبضات حكومية مكتومة وصوتي يرتفع مانحا الإذن بالدخول للأمين عبد الباقي ذي الخطوات المتثاقلة من أثر سنوات عمره الخمسين.

ـ خير يا عبد الباقي؟

لم يعد أمري يثير دهشته.. يعرف أنني أعرف أنه هو.. من صوت طرقاته أو من صوت خطواته فوق السجاد المهترئ.

- اللوا فهمي الشناوي من الأمن الوطني في انتظار حضرتك برة.

نظرت نحو مصطفى مانحا إياه ابتسامتي الساخرة التي لا أشبع من إظهارها عندما أكون على حق.. متابعًا من دون النظر إلى عبد الباقي.

- خليه يتفضل واعملنا اتنين قهوة.. سادة للباشا ومظبوطة لي.. وسيب الكارت بتاعه على المكتب عندك.

انصرف من دون أن يسألني.. من دون أن يتعجب كيف عرفت أن قهوته معدومة السكر.. وأنه منحه تلك البطاقة البلاستيكية التي أحملها بين يدي الآن.

لواء/ فهمي الشناوي

الأمن الوطني

- عشنا وشوفنا لوا في الأمن الوطني بيكتب عالكارت انه أمن وطني.

- كل حاجة بعد الثورة اتغيرت يا درش.. حتى الاسم اتغير وبقى الأمن الوطني.. كل حاجة بتتغير.

ثم رفعت الكارت اللامع متفحصا حروف اسمه المطبوعة بخط ثلث أنيق.

- إلا طباع اللواءات يا درش.

(١٠)

جالسا أمامي واضعا ساقه العرجاء فوق ساقه السليمة.. نجلس سويا على مقعدين متقابلين أمام المكتب الخشبي المتهالك.. لن أجلس خلف مكتبي وأمامه لواء أمن دولة سابق.. هؤلاء هم من يمتلكون القوة والنفوذ حتى بعد أن يرحلون عن عالم الظلام إلى سطح الأرض.. وأنا جبان.. نعم جبان ولا أملك إلا أن أهابه.

- القسم نور والله يا فندم.



ـ شكرا يا سيف باشا..

ـ القهوة عجبت حضرتك.

ـ مش بطالة.. بس انت عرفت منين أن قهوتي سادة.

ـ دي قدرات بقى سعادتك.

ضحكاتي جلجلت الغرفة محاولا أن أبدد سحب التوتر التي تملأ سمائي.. وابتسامة سمجة من وجهه الكئيب هو كل ما حصلت عليه لتتكاثر سحب رعدية في سماء الغرفة تنذر بسقوط أمطار من الـ..

ـ الحقيقة انا جاي لك في موضوع في غاية الخطورة.

ـ أكيد حضرتك تقصد الولد الإخوانجي إلى ساكن في الدور الثالث في عمارة ٦٤.

ـ هي الأخبار لحقت وصلتك من الإدارة.

ـ الحقيقة هي وصلتني من وشك.. قصدي يعني من وش حضرتك.

أراح ساقه من فوق الأخرى وتقدم بنصف جسده المنحني نحوي مستفهما.

ـ من غير ما حضرتك تسأل.. أنا جالي يجي ست بلاغات من عمارة ٦٤.. اللي بيقول لي ان عندنا جار جديد في العمارة سفاح وآكل لحوم بشر.. واللي بيقول لي انه شيوعي واللي بيقولي انه بيدير الشقة في أعمال مشبوهة واللي بيقول لي انه ملحد واللي بيقولي انه شاذ.. كدا يبقى فاضل تهمة واحدة بس.. وبما ان حضرتك كنت رئيس قسم ما أنا مش عارفه في أمن الدولة يبقى حس حضرتك الأمني هيبقى حساس جدا ناحية الولاد دي.. لذلك انا متوقع التهمة اللي حضرتك هتذكرها في البلاغ.

ـ ما شاء الله عليك يا سيف باشا.. أمال بيقولوا ظباط المباحث ما بيشوفوش شغلهم ليه؟

ثم عاد إلى وضعه السابق محدقا في وجهي.. رافعا قهوته نحو فمه وهو يصوب أشعة عينه الرمادية الباردة نحوي.

فترات صمت مرت لا يقطعها سوى صوت رشفه للقهوة من الفنجان الخزفي الأسود.. الطاقم الخزفي الأصلي المكون من ست قطع الذي باعه

لي ذلك الوغد على رصيف في ميدان رمسيس.. لأكتشف أنه صنع من أسوأ أنواع الطين المدعم بالرصاص.. لذا فقد قررت أن أجعله في خدمة الضيوف الأعزاء.. وخاصة من هم على شاكلة فهمي بك.

راحت عيناي تجوبان وجهه ورقبته وهيئته الجسمانية.. وعروق رقبته التي تحفر طريقها من وإلى عقله الذي سخره لخدمة نظام كامل جعله فوق قمة الجبل.. نبضات التوتر التي تسري في ذلك الوريد المتراقص أسفل أذنه اليسرى.. هو لا يريد أن يقول إنه خائف.. متوتر.. وأن ذلك الشاب يشكل صداعًا في رأسه منذ أن ظهر في حياته المملة الخالية من..

ـ في حاجة سيف باشا.

ـ لا يا باشا.. ده انا بس منتظر حضرتك تخلص القهوة ونخش في الموضوع.

ـ موضوع ايه؟

ـ الموضوع اللي حضرتك مشرفنا عشانه.

ـ ما انت لسه قايل من خمس دقائق انك عارف اني جاي عشان الولد الإرهابي اللي سكن عندنا في العمارة.

ـ تمام يا فندم.

ثم نظرت له في غباء أتعمده كلما أحببت ألا أفهم.. فوضع الفنجان فوق طبقي وعقد حاجبيه وهو ينظر نحوي.

ـ واضح اني حكمت على ذكاءك اسرع من المطلوب.

ـ ليه سعادتك بس؟

ـ لأني ببساطة جيت ابلغ عن ولد إخواني سكن عندي في العمارة وبيشكل تهديد على حياتي وعلى حياة السكان الشرفاء كلهم.

ـ واحنا من قبل ما حضرتك تشرفنا واحنا حطيناه تحت المراقبة.

ـ جرى ايه يا سيف باشا.. إنت بتكلم فهمي الشناوي.. هم أسدين قصر النيل اللي انت حاططهم على أول الشارع دول اسمهم مراقبة برضه؟

لم يخيب عبد الباقي ظني كعادته.

ـ وبعدين يا سيف باشا مراقبة اللي زي الولد ده لازم تكون بشكل اكتر احترافية ولازم يتم التعامل معاه بشيء من الحزم.. ببساطة كدا لازم تجيبه هنا وتعرف ده ايه حكايته وبيعمل ايه هنا.

ـ أجيبه بتهمة ايه يا باشا؟ تشكيل خطر متوقع على سكان العمارة.

ـ في أخطار لازم تتمسح مسبباتها من قبل ما تبدأ تظهر.

ـ مش لما تظهر مسبباتها يا فندم؟

زفر زفرة لا توحي بقدوم أي خير.. زفرة كصوت اصطدام السحب العالقة في سماء الغرفة.. يبدو أن هطول الأمطار أصبح وشيكًا.

ـ بص يا سيف.. إنت زي اخويا الصغير وانا هنصحك نصيحة عشان تعرف تستمر في شغلانتك دي.. لما ظابط أمن دولة يقول لك ان الولد ده خطر يبقى لازم تشك انه خطر.. ولما لوا قضى من حياته عشرين سنة بيتعامل مع العيال دي يقول لك ان الولد ده خطر يبقى الولد ده في منتهى الخطورة.. ولما نفس اللوا ده يقول لك انك لازم تتعامل مع الموقف بشدة وسرعة وتجيبه من قفاه على هنا وتخليه يعترف هو جاي يعمل ايه في عمارتنا ومين زرعه هناك.. يبقى لازم تنفذ وبسرعة.. وانت عارف ان البلد مش ناقصة وان..

ـ وان الوضع خطير والبلد بتمر بمنعطف تاريخي وان الحرب على الإرهاب هي الأولوية.. عارف يا فندم كلام حضرتك كله صح..

لم يستسغ مقاطعتي له ولا طريقتي في إلقاء الكلمات.. أعرف هذا من أصابع يده التي بدأت في الدق على ركبته.. أعرف ذلك من سبابة يده اليسرى التي بدأت في العبث بمؤخرة شعره.. لا هذه السبابة لا تعبث بسبب التوتر وإنما..

ـ أنا عندي سؤال صغير لحضرتك بس.

ـ خير؟

ـ الحلاق بتاع حضرتك بيجي البيت ولا بتحلق عنده في المحل.

ـ نعم؟!

ـ معلش خدني على قد عقلي وقل لي.

أنزل ساقه وهجم من جديد بنصف جسده العلوي.. نظراته مزيج من الدهشة والاستنكار والتربص.. ذئب عجوز أوشك على التهام حمل ففاجأه بسؤال عن صحة أسنانه.

ـ بروح له المحل.

ـ هي دي بقى المشكلة.. حضرتك لما بتروح له المحل بيخف لك آخر الشعر بالموس عشان ما يطلعش تاني بسرعة لأن حضرتك ما شاء الله مشعر زي ما انا شايف.. المشكلة بقى انه ما بيغيرش الموس في كل مرة رغم ان حضرتك بتأكد عليه كدا.. هو بيستغل انك مشغول في مراقبة منظر شنبك في المراية وهل هو متساوي صح ولا لا، وهو بيخف لك الشعر بنفس الموس اللي خف بيه لحد تاني قبلك.. ولذلك في التهابات حصلت لحضرتك في المكان ده نخلية مزاجك متعكر وسبابتك بتروح لا إراديا تهرش فيه.. رغم انك لسه داهن كريم التهابات قبل ما تشرفنا زي ما هو واضح من اختلاف لون السبابة والوسطى عن بقية الصوابع.. وأعتقد كدا ان حضرتك لو ما شوفتش دكتور أمراض جلدية بسرعة.. هتبدأ بوادر الـHysterias Itching في التطور.

ـ ال.. إيه؟

ـ الهرش الهستيري سعادتك.. الهرش الهيستيري.

ثم أرحت جسدي إلى الوراء حتى لامس ظهر المقعد الجلدي.. ومددت ساقي البدينتين أمامي في انتصار وقد رحلت سحب التوتر بعيدا عن سماء الغرفة أمام نظرات فهمي الشناوي الغاضبة المندهشة المستنكرة.

ـ بص حضرتك.. أنا اتخرجت من كلية الشرطة سنة ٢٠٠٠ تقريبا.. كنت الأخير في دفعتي في كل حاجة ليها علاقة بالحركة.. بس كنت الأول في حاجتين اتنين.. القانون.. وعلم النفس..

ـ فانت بتطلع عقدك علينا بقى يا باشا؟

ـ بالعكس يا فندم.. الموضوع ببساطة اني بحترم القانون أوي.. فوق

ما حضرتك تتخيل.. وطالما الموضوع ما عداش البلاغات والشكوك والاحتمالات والـ.. سميها حضرتك بالاسم اللي تحبه.. يبقى مقدرش اجرجر مواطن من قفاه على القسم واعلقه من رجليه لحد ما يعترف ان امه هي حسن البنا شخصيا ومتنكرة.

ـ ده انت عارف النكتة بقى اللي طلعوها عليا.

ـ يا فندم النكتة دي مشهورة في الداخلية من أيام ما المرحوم والدي كان مدير أمن.. واحب اقول لحضرتك اني بسمعها من وانا في تانية اعدادي.

ثم نهضت.. نهضت كما ينهض الجمل من نومة ليل كالح.. ونفضت توتري وخوفي وجبني وشعوري العميق بالضآلة أمام من يملك نفوذا قد يلقي بي غدا إلى غرفة معاون مباحث متآكلة الجدران في شلاتين.

ـ بس انا اوعد سعادتك اننا هنشدد المراقبة ونخليها اكتر احترافية.. ولو شمينا بس احتمالية خطر هنتعامل معاه بأقصى درجات الحزم..

ثم ملت برأسي ناحيته باسطا كف يدي فوق المكتب.

ـ واحترام القانون.. سعادتك؟

حدجني بنظرات باردة.. عينان تداريان شرارات ورصاصات وسهاما مسمومة في جعبتها.. ونهض واقفا أمامي ناصبا قامته مداريا تنميل ساقه التي لم يتغير وضعها من مسند لساقه الأخرى منذ وقت طويل.. ونظر نحوي ضاغطا على كل تشكيل لحرف من مخارج كلماته.

ـ بص يا سيف.. إوعى تكون فاكر ان استعراض المهرجين وشغل شيرلوك هولمز اللي عملته ده عمل في حاجة.. بالعكس.. ده أكد لي قد إيه انا شكوكي صح..

ـ ده شرف كبير لي يا فندم تشريف حضرتك النهارده بالزيارة.

وأشرت بيدي نحو الباب فنظر إلى الباب ثم نظر إلي ساخرا وهز رأسه وهو يلف ساقه التي أكلها النمل ويفتح الباب مغادرا.

إلا أن صوته جاء من بين شفتيه اللتين أخفاهما عني.

ـ واوعى برضه تفتكر اني هعديها.. الله يرحمه مات.. وما بقاش في حد هيعرف يحميك تاني يا حضرة الرائد.. مش انت رائد برضه؟

ثم فتح الباب وخرج مغلقا إياه في عنف.. عنف أخرج فيه رغبته الدفينة في صفع لغدي القابع أسفل رأسي الكبيرة.

ـ بص بقى يا سيف.. أنا قاعد في ركن الحمام ساكت وبسمعك زي ما قلت لي.. لا فتحت بقي ولا اتنفست حتى.. بس اللي انت عملته ده مش هيعدي يا ابن الناس.. وانت ابوك الله يرحمه ما كانش بيخدم حد عشان حد يخدمك.. يعني بتليفون منه ممكن بكرة تبقى قاعد مربع على سجادة في استراحة الضباط في شلاتين.

ـ تشرب قهوة يا درش؟

ـ نعم؟

نظرات الاستنكار تعلو عينيه وخيبة الأمل أسقطت كفيه، بينما ألف بجسدي نحو النافذة وأزيح ستارها مراقبا سيادة اللواء وهو يخرج من بوابة القسم عارجا على قدمه اليمنى.

التفت ناحية باب غرفتي وأمشي عاقدا أطراف كفي خلف ظهري.. أصابعي تلامس بعضها وكتفاي تئنان من محاولاتي المستميتة أن أتصنع وضع تشرشل الشهير قبل إعلانه الحرب على ألمانيا.

ـ كل التفكير ده عشان القهوة؟

ـ قهوة ايه؟

ـ إنت هتجنن أمي ليه يا سيف باشا.. أنا ماشي يا عم.

ثم فرد قامته وشد قميصه الواسع بأطراف أصابعه وأشار بيده إلي بما بين التحية الرسمية وسلام الأصدقاء وفتح الباب مغادرا.

أفقت من تفكيري على عبد الباقي يقف أمامي مطأطئا رأسه الأشيب.. ينظر إلي بطرف عينه العجوزة المنهكة وشفتاه تصارعان بعضهما البعض على نطق حروف تصفني بالجنون أو بالحذلقة أو بادّعاء الحكمة والحنكة.

وكأن عبد الباقي يعرف معنى الحنكة.

ابتسامتي الساخرة تمتد من خدي الأيمن لخدي الأيسر.. فيرفع عينيه ناظرًا الي في إقرار صريح بجنوني.

ـ عبد الباقي.

ـ سيف باشا.

ـ عايزك تبعت واد عسكري متعلم كدا ابن حلال يروح عمارة ٦٤.. مكتب المحامي اللي اسمه بدير العمدة.. ويقوله الرائد سيف الدين عبد الفتاح عايزك تشرفه في القسم.

ـ علم وينفذ معالي الباشا.

ـ من غير قلة أدب وطرجنة يا عبد الباقي.. ده محامي وبنستدعيه بشكل ودي.

ـ علم وينفذ معاليك.

سحبت كفي الأيمن ورفعته مشيرا له بالانصراف.. ثم تذكرت أني لم أركل كرامته العجوزة جزاء على وضع دولابين بتيجان مذهبة لمراقبة بناية في شارع مفتوح.

ـ أمين عبد الباقي.

ـ تمام معاليك.

ـ شيل جوز البقر اللي انت حاططهم من قدام عمارة ٦٤.. وغيرهم بعسكري جوه كشك حراسة.

ـ عسكري جو كشك حراسة.. مش تبقى مكشوفة كدا يا باشا؟

نظرت نحوه ساخرا.. ساخرا حتى لحفت نظرتي عينيه فطأطأ رأسه من جديد مستعدا لضربتي الخطافية الملتوية في عمق كرامته.

ـ لا خلاص.. إنصراف انت.. كفاية عليك أوي كدا النهارده.

انصرف لاويا شفتيه متقززا من سخريتي وحروف كلماتي التي تقطر ماءً قذرا من آثار مسح معتاد لكرامته.. حتى شعرت بالندم لأني لم أركله بين ساقيه ثم ألقي بجسدي فوقه منفذا حركة من حركات المصارعة الحرة الاستعراضية.

أدور بجسدي ناحية النافذة من جديد.. أزيح الستار عنها بعد أن ابتعدت شمس العصر عن زجاجها.. أراقب بنظرة مكسورة من أثر الشق الطويل أجسادا تغدو وتروح من باب القسم الحديدي المدعم ضد الرصاص.. رجل في مقتبل سبعينياته يستند إلى فتاة في مقتبل عشرينياتها ويمسك بيده ملفا يبرز منه أطراف مصفرة لأوراق تبدو أنها أدلة حكومية على بقائه حيا حتى الآن.. وعيناه تضخان حزنا وقهرا في محيط ساحة القسم التي كست الأتربة أطرافها.

شاب يمسك بيد فتاة التف الحجاب على وجهها مستديرا محكما.. ويداها تستقر في يده بينما يلمع خاتمها الذهبي في ما تبقى من شمس العصاري.. وفي يده حكم محكمة الحياة الذي تزين بصورتهما يوما معلنا أنهما باقيين في قفص محكم الغلق حتى يشاء الله.. قفص لم أدخله.. لم أدخله لأني على عكس ما أقول لكل من سألني.. لست عازفا عن دخوله.. بل أنا أرغب فيه بشدة.. أرغب فيه كما ترغب البقة في مص دمي كل يوم على مقعدي الجلدي الذي اتخذته ملاذا آمنا لها.. أرغب فيه كما يرغب الأمين عبد الباقي في إلباسي قميصا مقلوبا داخل عنبر في مستشفى أبي زعبل.

لم أدخله لأني ببساطة.. نسيت..

نعم.. نسيت.

(١١)

ـ شاي يا باشا.. تقيل سكر زيادة.

ـ إحنا هنا بنجيبه سكر برة.. يمشي معاك يا أستاذنا؟

ـ كل حاجة منك زي الفل يا سيف باشا.

بدير العمدة يجلس أمامي.. بدير العمدة أسطورة القانون الملتوي.. ثاقب الثوب الأبيض وكاشف عورات آلهة العدالة.. بدير العمدة ساتر العاهرات

وجابر خواطر الأرامل الأثرياء.. وقاصم ظهور الضباط وساحق كرامات وكلاء النيابات.

لو أني كاهن في معبد ست.. لنصبت تمثالا في صحن المعبد لبدير العمدة مرتديا رداءه الأسود رافعا ذراعه القصيرة وعقيرته الخشنة مبرزا تفاحة آدم التي تحتل نصف رقبته.. ولأسميته.. خادم الإله المبجل ست!

يمدد ساقيه القصيرتين أمامي في أريحية.. أعرف بدير العمدة منذ أن كنت ضابطا غرا صغيرا أخدم في الصعيد.. كان دائما ما يظهر وقت أن تشتد أزمة ثأر كبيرة أو قضية نزاع على أرض.. تتعقد الأمور وتتشابك بين العائلتين الكبيرتين.. وكيل النيابة يجلس بينهما كقاضي القضاة يستمع إلى طلبات هذا وطلبات هؤلاء.. الكل يريد تعويض دم سال تعويضا لدم آخر سال لتعويض دم آخر.. حلقة مفرغة من الدم السائل تعويضا لدم.. كبار العائلات رؤوسهم صبت من حجر بارد جاف لا يتكسر ولا يلين.. وهنا يظهر بدير كـ(الإله في الآلة) يجلس مع هؤلاء وهؤلاء بضع دقائق قائما بدور رسول السلام.. لا تعرف من أين جاء ولا من أين جاءه الاستدعاء.. حل درامي مثالي يفك العقدة ويبرم وثيقة الصلح ويحدد قيمة الأضحية التي سوف تحمل أوزار القضية.. توضع الأكفان فوق الأذرع وتنتهي المأساة الإغريقية بكلاف بهائم شاب أو بقاطع طريق يستلم جوالا من المال أو فدانا من طين.. الكل راض.. وكيل النيابة الشاب وكبار العائلات العجائز والضابط الشاب الذي علمه رؤساؤه أن القضية تغلق عندما تفتح الأدمغة..

أراقبه بطرف عيني يحتسي كوب الشاي بصوت مرتفع.. وسيجارته الأجنبية تحترق فوق المطفأة نحو مصيرها المحتوم وسط أخواتها.

- خير يا سيف باشا؟ اؤمرني.

- خير انت يا أستاذنا؟ الأمين عبد الباقي قال لي انك مقدم بلاغ في ساكن جديد عندكم في العمارة.

- قصدك الواد الشيوعي؟

- وما له.. نمشيها شيوعي.

ابتسامة صفراء ترتسم على وجهه ويضم ساقيه نحوه ويعتدل متناولا سيجارته الموشكة على الانتهاء..

ـ يا باشا لما بدير العمدة يقول لك انه شيوعي يبقى شيوعي.. العيال دي انا اشمهم من على بعد كيلو.. أيام الجامعة ما كانش حد يقف لهم غيري.

ـ نفترض انه شيوعي زي ما بتقول.. إيه اللي يضرك في ان جارك في العمارة يبقى شيوعي ولا حتى ماركسي.. إنت هتناسبه يا باشا؟

ـ يضر البلد يا سيف باشا.. الأشكال دي تعيش بينا عادي كدا في مكان مهم وخطير زي اللي احنا..

ـ بدير باشا.. سيبك من الكلمتين بتوع قناة الفراعين دول عشان ما بياكلوش معايا عيش.. أنا ظابط مباحث مش أمن وطني.. من الآخر كدا.. ايه هي الخطورة الجنائية عليك من جار زي ده؟

ـ حضرتك قريت المحضر اللي انا عملته في الواد ده؟

أتناول الاوراق من فوق طاولة المكتب أمامي وأقرا ممررا عيني فوق نبش الدجاج الذي خطه عبد الباقي.. ثم أنظر له مستفهما.

ـ ها يا باشا ايه رأيك؟

ـ إيه رأيي في إيه يا أستاذ بدير؟ إنت متهمه انه هددك بالقتل في مكتبك.. بسبب انك اترافعت عن والده في قضية تعويضات قطر البدرشين من عشرين سنة تقريبا.. وانه بيتهمك زورا وبهتانا انك استوليت على مبلغ التعويض.. المحضر ناقص معلومات مهمة أوي يا أستاذنا وانت سيد العارفين.

ـ زي إيه معاليك؟

ـ أهم معلومة يا أستاذنا.. اسمه.. هو ينفع حضرتك تقدم بلاغ في واحد من غير ما تقول هو مين.. أوتوماتيك كدا المحضر ده كأن لم يكن.. إنت عارف اني ممكن اقفله بجرة قلم واقول اني انتقلت مع قوة مكونة من علان وترتان ولم نستدل على الطرف المبلغ عنه.. إلخ إلخ.. بس انا قولت برضه

العمدة معاك قعدة ودية كدا عشان ندردش واعرف منك شوية تفاصيل.

ابتسامته الصفراء الباردة تتسع.. وارتعاشة في جفنه الأيسر تظهر ما يحاول طمسه خلف ذلك الوجه البارد المستفز..

ـ تفاصيل ايه يا باشا؟

ـ إسمه.. تاريخ الواقعة وتوقيتها بالظبط.. شوية تحابيش لزوم المحضر.

ـ هو انا لو اعرف اسمه كنت هخبيه ليه في البلاغ يا باشا؟

ـ أستاذ بدير.. أنا ما بحبش اللوع واللف والدوران.. يعني انت مش عارف مين الواد ده.. ما جبتش تاريخ حياة اللي خلفوه كلهم؟

الابتسامة مرسومة لا تتزحزح.. وعيناه ترسلان لي رسالة صريحة واضحة.. لا شيء عندي.. أنا أكذب وأنت تعرف أني أكذب.. لكني لن أغير حرفا مما أقول.. رسالة في منتهى الوضوح

حركة عصبية بدأت تظهر في ساقه القصيرة.. هو يملك ساقا أطول من ساق تسبب له عرجا مزمنا لكنه يداريه بمشيته التي يطوح بها جذعه إلى الخلف.. يداريه بابتسامته الواسعة وصوته الخشن الجهور.. يداريه خلف عينين تلتمعان ذكاءً وخبثا.

ـ بص يا سيف باشا.. إنت وانا وحتى الطفاية إلى قدامنا دي عارفة مين بدير العمدة.. وعارف كويس أوي اني لو اعرف حاجة تفيد الشرطة انا مش هتأخر عليك أبدا..

ـ لكن لو تفيدك انت.

ـ بغض النظر.. أنا راجل مواطن عايش آمن في بيتي دخل عليا شاب مجهول الهوية يهددني.. الشاب ده ساكن في عمارة ٦٤ شارع الزهور.. الدور الثالث شقة ٧.. حضرتك بقى لو عايز تعرف معلومات إضافية ممكن تعين له مخبر يراقبه.. تستدعيه للقسم هنا وتحقق معاه.. ده شغلكم بقى وانتم أحرار فيه.. لكن انا راجل محامي كبير وعندي قواضي تروح فيها رقاب ناس.. مش فاضي بقى كل يومين اجي القسم تسألني نفس الأسئلة انت ورجالتك..

ـ إحنا آسفين اننا عطلناك عن أشغالك يا أستاذ بدير.

ثم أنهض كجمل مل من تربيعة ساقيه.. أقاوم التنميل والدهون الضاغطة على ركبتي وأعدل من وضع سترتي مادًا يدي نحو الباب.

ـ شرفتنا يا أستاذ.. واوعدك اننا هنعمل اللازم في بلاغك.

ينهض مثبتا نفس الابتسامة الصفراء الواسعة.. أسنانه النخرة تبرز كسلسلة جبال مقفرة خلف شفتيه الداكنتين.. كفه النحيلة تندس داخل كف يدي المكتنزة رغم أني لم أمددها للسلام.. وجزعه النحيل يطوح إلى الخلف ماشيا مشيته الشبيهة بوحوش أفلام الرعب الرديئة.. فرانكنشتين الصعيد يرحل تاركا إياي في محاولاتي لبصق سمومه التي أرسلها إلى جسدي بمصافحته.

أدور بجسدي خلف الطاولة وألقي بنفسي فوق المقعد المعدني.. يئن طالبا السماح مخاطبا إياي من بين أناته (اتركني أذهب لحال سبيلي واطلب منهم أن يأتوك بمقعد آخر ذي أقدام أكثر قوة.. فأنا عجوز يحتاج للراحة من كتلتك الثقيلة).

أتناول الجريدة القابعة بجوار الهاتف الرقمي الأسود.. وقلمي ذي الخط الرفيع يرقص فوق المربعات البيضاء..

أنثى الثعبان (معكوسة).

* * *

(١٢)

الساعة تشرف على التاسعة صباحا.

والنوم يأبى أن يزورني.

اليوم حار.. حار بشكل تعجز دفقات الهواء البارد المندفعة من جهاز التكييف الجديد المعلق فوق فراشي أن تذيب حرارته.. أم تراها الرطوبة؟

أتمدد في فراشي أراقب ذبابة تحوم حول المصباح الصغير أصفر اللون..

السهراية كما تسميها أمي.. لا أدري لماذا اتخذت قرارها الصارم وأنا طفل في سنوات عمري التسع أن تضع هذا المصباح الأصفر الكريه فوق باب الغرفة.. أترى يحفظني هذا الضوء الباهت من خيالاتي التي راحت تهاجمني وأنا بعد طفل.. طفل بدين يعد شقوق السور الحجري في المدرسة ويعد حبات التوت في الشجرة العملاقة أمام منزلنا القديم في جاردن سيتي.. طفل بدين يلعب الشطرنج مع نفسه في ركن قصي بالغرفة.. يطيح بالوزير الأبيض بثلاث ضربات قاصمة.. ثم يلتف إلى المقعد الآخر فينقذ ملكه الأبيض بثلاث حركات ملتوية.. ثم ينام على الأرض بجوار الطاولة حالما بعالم من الأبيض والأسود يتقافز فيه بجسده البدين فوق المربعات.

ـ الواد بيلعب مع نفسه بالشطرنج يا ابراهيم.

ـ ما تسيبيه في حالة يا يسرية.. مش احسن ما ينزل يلعب بلي في الشارع ولا يقول لك انا عايز ألبوم الدوري المصري؟

ـ يا ريته بيعمل كدا.. أهو يبقى شبه الولاد اللي قده.

ـ إبنك هيبقى ظابط مباحث عبقري.. انا بخبرتي في الشغلانة دي بقول لك.. سيف هيبقى ظابط مباحث.

أبي وأمي.. أمي وأبي.. وولد وحيد بدين لا يمل الأكل ومشاهدة حلقات كوجاك.. وأحلام من الأبيض والأسود.. ثم مراهق مترهل لا يستهويه اللهاث خلف الفتيات.. ثم طالب بليد قبيح الروح في كلية الشرطة.

فقط عندما قابلت مصطفى.. ساعتها تغيرت الدنيا إلى الأبد.

(١٣)

هي فاتنة بلا شك..

نعم.. فتاة بيضاء واسعة العينين.. يلتف الحجاب الملون فوق رأسها فيمنح وجهها استدارة بدر في ليلة صافية.. وعيناها العسليتان الواسعتان

المحاطة برموش طويلة مستقيمة.. رموش خلقت بـ(ماسكارا) طبيعية لم تصنعها معامل كوكو شانيل.

- إزيك يا آنسة ريم.

- الحمد لله يا فندم.

ترتعش يداها قابضة على كوب الليمون.. يهبط لمعدتها حارقا جدرانها إلا أنها تتظاهر بالاحتمال.. فتاة رقيقة كتلك لم تمر بجوار قسم شرطة لا بد أن تكون مرتعشة داخل هذه الجدران.. تتظاهر بالثبات إلا أن قلبها الهش يتراقص داخل صدرها المستدير طالبا الهرب من هذه الجدران الحكومية المصمتة.

- إيه الليمون مش عاجبك؟

- هو الحقيقة مر أوي.. إنتم معندكوش مشروب غيره في القسم.. أصله محسسني اني متهمة وحضرتك قاعد بتميل دماغي عشان اعترف.

يا ليتني أستطيع إمالة رأسك الفاتن فيستريح فوق صدري إلى الأبد.. يا لك من وغد قذر يا سيف.

- لا متهمة إيه لا سمح الله.. أنا مجرد عايز اردش معاكي بس.. بخصوص الولد اللي ساكن عندكم في الدور الثالث.

- وانا تحت أمر حضرتك.

- طيب احكي لي بقى.. إيه إلى خلاكي توصلي للاستنتاج الخطير ده؟

تعتدل في جلستها مزيحة طرف الثوب المزركش بورود زرقاء وبنية.. وتضع كوب الليمون فوق الطاولة الزجاجية الصغيرة.

- بص حضرتك.. أنا طالبة في كلية اداب قسم علم نفس.. فاضل لي سنة واتخرج.. وبما إني طالبة في جامعة كبيرة زي جامعة القاهرة فياما شوفت وياما عرفت.. الأصناف دي انا بقابلها كتير أوي في حياتي وبعرفها كويس أوي من أول مرة بقف معاهم فيها واحنا في الجامعة.. والصراحة انا من أول مرة شوفته وهو مش طبيعي.

- مش طبيعي ازاي يعني؟

ثرثرِ يا صغيرتي.. أحب ثرثرة النساء وميلهن للتفاصيل.. أخبريني بالتفاصيل.

- مش طبيعي يعني مش طبيعي.. ساكت كدا ومقفول على نفسه.. ما بنسمعلوش حس في العمارة.. بيخرج واحنا مش شايفينه وبيرجع واحنا مش شايفينه كأنه عامل عملة أو مستخبي من عملة.. الصراحة في الأول كان يعني عاجبني وكنت حاساه راجل تقيل وكول كدا.. لحد..

- ريم.. أنا بحب التفاصيل جدا جدا.. عايزك تحكي لي بالتفاصيل.. يعني إيه بيخرج وانتم مش شايفينه وبيرجع وانتم مش شايفينه.. هي مش العمارة ليها بواب؟

ضحكة مدوية كتمتها فيتهز جسدها الناشئ البض.. وابتسامة ساخرة ترتسم فوق شفتيها التي تحلم بهما أي ممثلة صاعدة في عالم أفلام السبكي.

- حضرتك أكيد بتهزر.. هو اسماعيل ده بواب.. ده باشا.. ده احنا شخصيا ما بنشوفش وشه الا عشان ياخد فلوس نور السلم أو فلوس المية.. ده الأسانسير بايظ بقى له شهر وما فكرش يصلحه.

- هم كل البوابين كدا اليومين دول.. طب ده احنا البواب بتاعنا في مدينة نصر ما بنشوفوش الا أول كل شهر عشان ياخد الشهرية.. والسلم من كتر التراب اللي عليه بقى عامل زي سلالم بيوت الأشباح.. كملي وبعدين؟

- وبعدين بقى حاولت يعني الفت انتباهه.

- تلفتي انتباهه ازاي؟

عيناها زاغتا نحو النافذة المشروخة وعلامات خجل يخجل أن يظهر، تكسو وجهها.

- مفهوم مفهوم.. وبعدين؟

نظرات ممتنة تقفز فوق مقلتيها العسليتين الساحرتين.. ممتنة من طوق النجاة الذي قذفه لها الضابط البدين.

ـ وبعدين ولا حاجة.. بيعمل نفسه مش شايفني وكأني مش موجودة.. أو انا كنت فاكرة كدا في الأول.

ـ وطبعا اكتشفتي بعدها ان له اهتمامات تانية؟

ـ يعني تقدر حضرتك تقول كدا.

ثم رفعت يديها البضتين تعدل من وضع الإيشارب القطني المزركش فوق رأسها.. وتخفي خصلة بنية هربت من طوق الحجاب المحكم حول وجهها المستدير.. هذه الفتاة ذات روح واثقة متمردة.. لا تضع الأنثى طلاء أظافر محكم بلا أي رتش على أطراف أظافرها إلا لو كانت تهتم بروحها المحبوسة خلف ثياب زاهية محتشمة.. هذه الفتاة لا تعطي نفسها إلا لمن تراه يستحق أن يحصل على العطية الكريمة.. هذا الجسد المستدير الفائر لن يرتمي إلا في أحضان رجل كامل يستحق أن يحتضنه.. معركتك خاسرة يا سيف.. لست رجلا كاملا يمكنه أن يحتضن هذا الجسد يوما.. كان هذا الشاب على وشك أن يفوز بالغنيمة لو طلبها.. لكنك لن تفوز بها لو قررت أن تحطم الأسوار التي نصبتها حول روحك المثقلة بمئة وثلاثين كيلو جراما.. لن تفوز.

أنفض الأفكار من رأسي وهي تحكي.. تحكي عن سيارة أشرف ممتاز الرياضية الفاخرة.. تحكي عن ابتسامات الشاب ذي الذقن غير الحليقة والقمصان الكاروه.. تحكي وكلامها يخرج متراقصا على الشفاة الممتلئة متشربا رحيقها ملقيا السحر في أذني.. الأفكار تعود من جديد.. وكلام الفتاة يحلق حزينا منكسرا بين أربعة جدران حكومية طليت بطلاء أبيض رخيص.

(١٤)

تتقافز الأرانب في طرقات عقلي.. تتزاوج وتلد أرانبا تتقافز مع من جلبوها إلى عقلي لتتزاوج وتتقافز من جديد.

عقلي تحول إلى بطارية أرانب غزيرة الإنتاج!

ـ ها يا سيف وبعدين.

ـ مش عارف والله يا مصطفى.. مش عايز اتفذلك واعمل فيها شيرلوك هولمز واقول لك اني عرفت احدد اي حاجة.. الموضوع كله على بعضه اهبل كدا ولين زي المكرونة.

ـ طب ما تبعت تجيب الواد هنا وتستجوبه.

ـ أجيبه هنا بتهمة ايه يا مصطفى.. وبعدين ده لما احب اطلع له أمر ضبط وإحضار اطلعه ازاي.. ده محدش فيهم عارف له اسم.. حتى مرعي لما عمل تحرياته اللي ما تخرش المية ما عرفش يوصل لمعلومة عنه توحد ربنا.. وجوز البهايم اللي موقفهم عبد الباقي على أول الشارع ما بيشوفهوش لا داخل ولا خارج.. أقول لك على حاجة كوميدية بقى تهلك من الضحك؟

ـ قول كدا يا شكوكو.

ـ عبد الباقي ذات نفسه طلع امبارح على العمارة وطلع السلالم قدام البواب الاهبل اللي عامل لي فيها سبع الليل.. وخبط على باب الشقة بدل المرة تسعة.. ومحدش فتح.. وعمل وردية مراقبة بنفسه وبرضه الواد ما ظهرش.

مصطفى يبتسم ساخرا.. لا شيء يضحك فيما أقوله أكثر من طريقتي في قوله.. هو يعرف أنني لا أعير الأمر اهتماما لأنه ببساطة غير مهم بالمرة.. وأني أدعي الاهتمام فقط كي أبدو محققا مهما مقبلا على قضية عمره..

منذ أن عرفت مصطفى ونحن طلبة في كلية الشرطة وهو يجيد قراءة انفعلاتي وردود أفعالي.. ربما يجيدها أكثر مما أجيد قراءة العلامات في قمصانه الواسعة!

ـ بص يا سيف.. مش لازم يا بابا عشان تبقى ظابط مباحث كويس يبقى عندك كل يوم قضية.

ـ ومش لازم عشان ابقى ظابط كويس اقعد من غير قضايا.

ـ خلاص اطلب نقلك قسم حلو كدا من اللي كل يومين تلاتة فيهم جريمة قتل ولا جريمة سرقة.

ـ مستنيك انا بقى تقول لي كدا يا عبقري زمانك.. دي طلبات النقل مالية زبالة المديرية من كتر ما قدمتها واترفضت.

يضحك واضعا ساقا فوق ساق ومريحا جسده على المقعد الجلدي.. يستقر فوق المقعد الذي كانت تحتله الفاتنة ذات الحجاب منذ أيام.. يا لك من صفيق يا مصطفى.. كيف تجرؤ؟!

ـ عجبتك؟

ـ هي مين؟

ـ المزة ام دريل لبني وحجاب؟

ـ قصدك ريم.

ـ ده انت حفظت اسمها اهو يا ابو السيوف.

ـ ومن امتى كنت بنسى أسامي يا سيادة النقيب.. وبعدين إيه ابو السيوف دي؟

ـ بدلعك.

ـ دلع مرق.

يضحك مقهقها كاشفا عن أسنانه الناصعة.. وسيجارته تسقط رمادها فوق السجادة التي تآكلت أطرافها فخبأها عمال النظافة تحت مشايات رخيصة جلبوها من مخازن الوزارة.

ـ المهم بقى قل لي.. نويت على إيه؟

ـ نويت اعدي على أبو رامي اكلي اكلة مدملكة كدا.. وبعدين اروح لامي اقعد اتفرج معاها على حريم السلطان لحد ما ادلق انام.

ـ ربنا يعينك.. هاتكل انا.

ثم ينهض مطفئا سيجارته في المنفضة المليئة بأعقاب سجائره بنية الفلتر.. ويعدل من وضع قميصه الواسع فوق كتفه مرتديا نظارته الشمسية.. برستيج الضابط كما يسميه.. لا أرى سببا في الحقيقة يدعو ضابط شرطة لارتداء نظارة شمسية في التاسعة مساء!

تقفز يداي حاملة جسم الجريدة من درج مكتبي.. أقلب الصفحات

حتى أصل إلى المربعات البيضاء والسوداء والقلم يتراقص فوقها.. اليوم هو الأربعاء وجريدة الأهرام تخرج لي لسانها متحدية أن أحل كلماتها العملاقة.. لكنها لا تعرفني.. لا تعرف أن أختا لها منذ أسبوع أخرجت لي نفس اللسان حتى..

طرقات يد عبد الباقي السخيفة.. المقبضة.. المنذرة بالويل.

- ادخل يا عبد الباقي.

يزيح الباب من طريقه مصدرا ضجيجا كرتونيا مستفزا (ايىء ايىء) حتى هذا الباب أكل الصدأ مفصلاته.

- خير.

- في واحدة برة عايزة تقابل حضرتك.

- حلوة؟

يصمت.. ربما لأنه لم يعهدني أتساءل عن جمال امرأة تأتي إلى القسم.. ربما يدور عقله الآن في دائرة الشك في سلوك سيف باشا المتربي ابن الأكابر.

أرفع رأسي ناظرا نحوه متسائلا عن سر صمته لأجدها تقف على الباب تبتسم لي في ارتباك

- إتفضلي..

تتقدم ناحية المقعد الجلدي التي كانت ريم تحتله منذ أيام ومصطفى منذ دقائق.. ثم تجلس في المقعد المقابل.. المقعد الأيسر أمام المكتب.. هذه الفتاة ليست من هنا على ما يبدو أو أنها تعودت أن تحرك رأسها من اليسار إلى اليمين.. او ببساطة يعجز عقلي عن استيعابها.. لا تحب أن تجلس والباب خلفها!

اللعنة على عقلي الذي يأبى ترك الناس في حالهم.

- روح انت يا عبد الباقي وابقى شف لنا صنايعي يزيت الباب.

- أوامر معاليك.

ويغادر ساحبا الباب ببطء فيزداد صوت الأنات الكرتونية.. لينكمش وجه الفتاة وسط شعرها الملتف الهائش.



- أقدر اساعدك بحاجة؟
- أنا اسمي فريدة عبد الحميد.. ساكنة في..
- عمارة ٦٤ شارع الزهور..
ابتسامة ساخرة على وجهها أزالت بعض من توترها.
- حضرتك عارف سكان عمارتنا واحد واحد بقى.
- حضرتك في مكتب ظابط مباحث القسم مش في أولاد رجب.

لم تبتسم.. تعابير هي أقرب للامتعاض تظهر على ثنايا شفتيها.. الفتاة التي لا تضع المساحيق إلا لماما ولا تصفف شعرا هائشا ملتويا كهذا فهي فتاة لا تحب إفيهات ضباط البوليس.

- أظن حضرتك جاية تقدمي بلاغ في الشاب اللي ساكن في الدور الثالث شقة ٧.. ويا ترى بقى حاول يتحرش بيكي ولا بيبص عليكي من شباك الحمام؟
- هو انا دخلت ٢٢١ بيكر ستريت وانا مش واخدة بالي؟

تسخر مني إذن.. فتاة تعرف رقم منزل شيرلوك هولمز الأسطوري هي فتاة خطيرة.

- تقدري تقولي كدا.
- أمال مستر هولمز فين؟ أصل انا مش شايفة غير دكتور واتسن.

السخرية تتخذ منحنى أصبح يمس هيبتي كضابط شرطة.. لا بد من بعض الحزم هنا.

- حضرتك جاية تهزري هنا في قسم الشرطة؟
- واضح ان حضرتك اللي بتهزر.. لما مواطنة تدخل قسم الشرطة وتطلب تقابل ظابط مباحث يبقى المفروض انه يسمعها مش يتريق عليها.
- كدا يبقى حضرتك تطلعي عند الأمين عبد الباقي برة وتستني الظابط النبطشي وهو هيعمل اللازم.

ابتسامة سمجة تملأ قسمات وجهي الممتلئ فتعطيني وجها شبيها بمهرجي السيرك.

ـ الموضوع ما يستحملش انتظار وظابط نبطشي.. ولو حضرتك ما اتحركتش فورا انا هطلع على مديرية الأمن واشوف مدير الأمن نفسه ممكن يعمل ايه.

ـ أنا ما تهددش يا آنسة فريدة.. انا بعمل واجبي كويس هنا.. ولا يهمني بقى مدير أمن ولا وزير الداخلية شخصيا.

ـ أنا شايفة ان حضرتك سايب واجبك وقاعد بتتخانق معايا هنا وحياة بني آدم ممكن تكون في خطر.

هذه الفتاة لا تكذب.. الحماس والغضب والحزم المتشابك فوق قسمات وجهها يوحي بأمر جد خطير.. شفتاها اللتان تتراقصان في توتر تقولان إن الأمر فعلا خطير.

ـ حياة مين اللي في خطر.

ـ حياة الإنسان اللي ساكن في عمارة ٦٤.. الدور الثالث شقة ٧.

(١٥)

رأسي

عاصمة ألمانيا (معكوسة).

اختفاء من دون رغبة الشخص.

أفقي

شخصيتان من الأدب الشعبي الألماني.

أبيض.. أسود.. أبيض.. أسود.

(١٦)

نجلس في كافيتريا في مكان ما بالقرب من القسم

لا أحب هذه الكافتيريات الحديثة المليئة بالديكورات الخشبية وأكواب

القهوة الخزفية التي طبع عليها شعار سلسلة الكافتيريات العالمية التي قررت منذ بضع سنوات أن مصر سوق خصبة لأنهار الإسبريسو والفرابتشينو المثلج.

منظر يوحي للجميع بأن الفتاة العصرية ذات الجينز والقميص الواسع قررت أن تدفن زهوة تحررها في عالم رجل بدين يجلس متضايقا في مقعد ضيق ذي حدود خشبية.

ـ وبعدين يا فريدة.. كملي.

ـ كان كل يوم بيعدي علي في نفس المعاد ومعاه حاجة حلوة.. سي دي من المزيكا اللي بحبها.. رواية.. ورقة مطبوعة فيها قصة قصيرة بالألماني وترجمتها العربي تحتها.. يقف على الباب خمس دقائق بالعدد ويحكي لي عن يومه وبعدين ينط السلم سلمتين سلمتين لحد الدور التالت.. ريحة برفانه ومزيل العرق تفضل معلقة في مدخل الشقة لحد تاني يوم الصبح.

ـ وما بتشوفيهوش تاني لحد تاني يوم؟

ـ بالظبط.

أرفع قدح الإسبريسو نحو فمي فقط لأجده قد فرغ.. قهوة مرة بدون طعم ولا تبقى مثل أكواب قهوتي غامقة البن.. ويدفع الإخوة مرتادو هذه الكافتيريات رقما من صفرين فيها مدعين أنها (بتفتح خلايا المخ)!

ـ هو مفيش حاجة هنا عدلة تتشرب غير البتاع ده؟

ـ الإسبريسو مش عاجبك؟

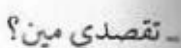
ـ هو فين الإسبريسو ده؟

ـ ما هو بيتشرب كدا.. ده دبل شوت كمان.

أبدي امتعاضي مقلبا القدح الفخاري ثم انظر لها محاولا تناسي عكارة المزاج التي أصابتني من هذا الإسبريسو.

ـ وايه اللي حصل بعد كدا؟

ـ زي ما انت عارف كدا اننا في مجتمع صحي جدا وبيحب يفسر الحاجات بتفسيرها الصح طول الوقت.. بدأت الأصوات المريضة عندنا في العمارة تعلو.. وبقيت اسمعهم بيهمسوا بينهم وبين بعض عليه وعلي.



- تقصدي مين؟

- كلهم.. كل الإخوة السكان.. اللوا فهمي ومدام عفاف وأشرف نيازي.. حتى الشيخ أمين والأستاذ ألبرت.. نسيوا انهم مش طايقين بعض واتحدوا سوا وعملوا فيها رعاة الشرف والفضيلة في العمارة.. وحدة وطنية صح.

وابتسمت في سخرية مريرة وهي تحول عينيها السوداوين إلى الواجهة الزجاجية.. الواجهة التي تكشف الشارع الذي تملأه السيارات الفارهة والميكروباصات الشبيهة بعلب السمن النباتي الصدئة.

- كل ده كان عادي وانا مستعدة اتقبله.. أصل الإخوة السكان مش نازلين من السما عشان كلامهم يهمني في حاجة.. في تعبير ألماني لطيف كدا بيقولوه في المواقف دي Lassen sie die Hunde bellen.

- القافلة تسير والكلاب تنبح يعني؟

- حاجة زي كدا.. بس برافو انك عارف ألماني.

- شوية كدا من أيام ثانوي.. بس المبدأ ده ما ينفعش هنا في بلدنا يا فريدة.. هنا المبدأ معكوس.. القافلة هي اللي بتنبح والكلاب دايما بتسير.

شبح ضحكة ساخرة يرتسم على وجهها وهي تدير عينيها إلى الواجهة الزجاجية من جديد.. تبدو كمن تبحث عن شيء ضائع لا تعرفه.. عينان تسرحان في وجوه الناس وكأنهما تبحثان بينهما عن وجه ما.

- لحد بقى ما اختفى.. صح؟

- تقدر تقول كدا.. هو أصل ما فيش تفسير تاني لوضع زي ده.. واحد كنت بشوفه كل يوم في نفس المعاد على باب شقتي بقى لي ست شهور.. وبعدين يختفي أسبوع كامل.. في الأول قولت ده زهق وعادي كانت بداية زي أي بداية يجي بعدها فتور.. بس الفتور ما بييجيش بسرعة كدا.. لازم يبقى له مراحل مدرجة كدا زي المطر.. يبتدي زخات وبعدين يشد لحد ما يقلب سيل.

- تقصدي مين؟
- كلهم.. كل الإخوة السكان.. اللوا فهمي ومدام عفاف وأشرف متاز.. حتى الشيخ أمين والأستاذ ألبرت.. نسيوا انهم مش طايقين بعض واتحدوا سوا وعملوا فيها رعاة الشرف والفضيلة في العمارة.. وحدة وطنية صح.

وابتسمت في سخرية مريرة وهي تحول عينيها السوداوين إلى الواجهة الزجاجية.. الواجهة التي تكشف الشارع الذي تملأه السيارات الفارهة والميكروباصات الشبيهة بعلب السمن النباتي الصدئة.

- كل ده كان عادي وانا مستعدة اتقبله.. أصل الإخوة السكان مش نازلين من السما عشان كلامهم يهمني في حاجة.. في تعبير ألماني لطيف كدا بيقولوه في المواقف دي Lassen sie die Hunde bellen.

- القافلة تسير والكلاب تنبح يعني؟
- حاجة زي كدا.. بس برافو انك عارف ألماني.
- شوية كدا من أيام ثانوي.. بس المبدأ ده ما ينفعش هنا في بلدنا يا فريدة.. هنا المبدأ معكوس.. القافلة هي اللي بتنبح والكلاب دايما بتسير.

شبح ضحكة ساخرة يرتسم على وجهها وهي تدير عينيها إلى الواجهة الزجاجية من جديد.. تبدو كمن تبحث عن شيء ضائع لا تعرفه.. عينان تسرحان في وجوه الناس وكأنهما تبحثان بينهما عن وجه ما.

- لحد بقى ما اختفى.. صح؟
- تقدر تقول كدا.. هو أصل ما فيش تفسير تاني لوضع زي ده.. واحد كنت بشوفه كل يوم في نفس المعاد على باب شقتي بقى لي ست شهور.. وبعدين يختفي أسبوع كامل.. في الأول قولت ده زهق وعادي كانت بداية زي أي بداية يجي بعدها فتور.. بس الفتور ما بيجيش بسرعة كدا.. لازم يبقى له مراحل مدرجة كدا زي المطر.. يبتدي زخات وبعدين يشد لحد ما يقلب سيل.

الآن نحن نجلس كصديقين نتبادل الحكي عن مكنوناتها الداخلية.

ـ بس مش ممكن يكون خيالي جمح للدرجة دي.. صعب جدا.. طيب والسي ديز اللي محطوطة عندي فوق الدي في دي مين اللي جابها لي.. والملف اللي قاعد في المكتبة جنب كتب جوته مين اللي ملاه؟

ـ أنا مقدر اللي انتي بتقوليه يا فريدة وفاهم.. بس اسمحي لي اقول لك يعني ان كل اللي قولتيه عن سكان العمارة ده ما ينفعش يكون دليل اتهام ضدهم أو حتى مقدمة اتهام..

اقترب وجهها مني لامع العينين.. وهمست بصوت يشبه فحيح الساحرات في أفلام الكرتون.

ـ إنت ما تعرفش السكان دول زي ما انا اعرفهم يا حضرة الظابط.. وما تفتكرش ان المعلومات اللي عندك عنهم هتخليك تعرفهم قدي.. إياك تنخدع بدقن الشيخ أمين ولا بصليب الأستاذ ألبرت.. إوعى تفتكر ان مدام عفاف دي ست أرستقراط ولا اللوا فهمي ده راجل مستقيم.. أنا اعرف حاجات عن بدير العمدة ده ما تعرفهاش عنه عشيقته اللي بتجيله كل يوم خميس بالليل.. أشرف ممتاز مثلا اللي انت تعرف عنه انه كاتب مشهور ونجم مجتمع ما تعرفش عنه مثلا انه.

ـ عارف.. مش مظبوط

ـ Scheile.. مش ده قصدي خالص.. انا بتكلم عن الحاجات التانية.

ـ حاجات ايه؟

ـ مش مهم.. المهم انه مش زي ما انت فاهم.. محدش منهم أصلا مستقيم أو ممكن تاخد كلامه محل ثقة.. كلهم ببساطة شمال.. حتى الحية اللي اسمها ريم.

تصف ريم بالحية.. أي صفاقة تتهم بها فاتنتي حاملة وجه البدر بالحية.

عقلي يدور وكلماتها تدور في خلفية المشهد.. عيناها المتوهجتان وشفتاها الهامستان بفحيح ألف ساحرة ويداها اللتان تقبضان على أطراف الطاولة حتى تكاد تحطم الاخشاب المحيطة بسطحها الرخامي.. أعراض بارانويا حادة.. هذه الفتاة من طراز هم سيئون بلا شك.. أظفارها الملتفة الخالية

من الصباغة ونظراتها الزائغة نحو زجاج الواجهة الكبير.. وصوتها القابع في خلفية المشهد المتردد كصدى صوت ساحرة من عوالم هانز وجريتل محبوسة في بئر وسط غابة سوداء.

تراجعت إلى الخلف وصمتت.. وصدى صوتها يأتي من البئر كأنها لن تصمت أبدا.. وعيناها تحملان أطنانا من الدموع توشك على الانهيار في سماء المكان الملبدة بالدخان.

مراحل سقوط المطر

ـ إمسكي نفسك شوية يا فريدة.. الناس هتبدأ تبص علينا وتقعد تتكلم عن الوغد اللعوب اللي بيجرح شعور البنت البريئة اللي قاعدة معاه.. أنا مش ناقص الله يكرمك.

ـ أنا مضطرة امشي دلوقتي.. وياريت بعد إذنك تاخد الموضوع بجد شوية.. في حياة بني آدم ممكن تكون في خطر بجد.. أرجوك ما تنبش في عقلي الصورة اللي في خيالي عنكم.

ـ عنا؟!

ـ إنت فهمني كويس يا حضرة الظابط.. بعد إذنك.. ميرسي على القهوة.

ثم غادرت.. غادرت وهي تمشي رافعة رأسها من خلف الواجهة الزجاجية.. غادرت وهي تنظر في ساعتها فتصدم بسيدة أخرى ثم تعتذر لها بنظرات متعلثمة.. ثم تكمل طريقها رافعة رأسها الهائش في شموخ.

هاتفي المحمول يصدر أزيزا صاخبا في جيب البنطال الجينز.. أزيزًا ينذرني بالويل.

ـ سعادة الباشا.

ـ إزيك يا سيف.. أنا عايزك في مكتبي في الوزارة دلوقتي.

ـ الساعة ١١ يا فندم.. هو حضرتك لسه في المكتب؟

ـ بسرعة يا سيف وما تتأخرش.

أغلق الخط وأطلب من النادل المتأنق حساب المشروبات.. وعيناي تتعلقان بكوب فخاري فرغ نصفه يقف أمامي فوق طاولة خشبية.

وصوت الفحيح ما زال يتردد في البئر.. رغم الصمت.



(١٧)

اللواء زكي المليجي

لمن لا يعرفه.. ولن يعرفه.. هو أخطر شخصية في وزارة الداخلية.

بالنسبة لي على الأقل.

هو ذلك الكيان الغامض القابع خلف مكتب خشبي فخم في غرفة مكيفة ذات سجادة صوفية تحمل رسومات حديثة من الدوائر والخطوط.. وعقل قابع خلف وجه جامد ذي شارب منمق صبغ بعناية بلون بني يتماشى مع شعر ثقيل لا تصدق عيناك أن رأسًا لرجل في الخمسين تجرؤ أن تحمله.

ـ اقعد يا سيف.

ـ إزي حضرتك يا فندم؟

اللواء زكي المليجي

مساعد وزير الداخلية.. مدير المباحث الجنائية

ـ إنت عارف انا طلبتك انت ليه شخصيا.. من غير ما تعدي على رئيس مباحث العاصمة؟

ـ لازم الموضوع خطير يا فندم.

ـ إيه الجملة التقليدية دي.. إنت ظابط مباحث والمفروض تكون دماغك صاحية اكتر من كدا.

أصمت.. أصمت محافظا على رأسي من مقصلة سيادة اللواء.

اللواء زكي المليجي

لم يكن يوما رجلا عاديا في وزارتنا.. منذ أن كان ضابطا برتبة رائد يجلس على مقعد رئيس المباحث في أحد الاقسام المزدحمة بقضايا القتل والخطف والسرقة بالإكراه.. ضابط يهبط من عليائه في سيارته السوداء من طراز بيجو ٥٠٤ بلا قوة مساندة أو حملة ضبط ليجلب زمرة ممن يسميهم بفخر (الخارجين عن القانون).. ثم رئيس مباحث العاصمة الذي

لم يستطع أي من وكلاء النائب العام أو محامي الصف الأول أن يوجد ثغرة في ملف تحريات قدمه.. رجل عرضت عليه وزارة الداخلية بالأمس القريب فرفضها في إباء لأنه (لا يحب أن يخرج من دائرة الأحداث) كما يعرف كل مجند نفر في وزارة الداخلية.

ـ بص يا سيف.. المرحوم اللوا ابراهيم كان أستاذي واللي علمني كتير أوي لما كان ماسك الإدارة وانا ظابط صغير في المباحث.. والمرحوم اللوا ابراهيم هو أول واحد عارضني لما فكرت انقلك المكتب عندي هنا وانت لسه متخرج طازة من الكلية.. قال لي سيبه يتعلم ويتمرمط عشان يطلع ظابط كفء.. وعشان خاطر المرحوم اللوا ابراهيم بس.. أنا طلبتك تجيلي شخصيا.

مقدمة ليست باللطيفة.. هناك ما ينذر بسقوط أمطار رعدية.. كما ينبهني دوما عالم الأرصاد الجوية القابع في عقلي المزدحم.

ـ إيه حكاية الواد بتاع عمارة المعادي؟

ـ التحريات شغالة يا فندم والعمارة كلها تحت المراقبة و..

ـ إنت هتستعبط يا سيف.. الكلام ده تقوله في تقرير رسمي ما تقولهوليش انا.

الرعد بدأ في ضرب الأجواء ولا مفر من المواجهة.

ـ أنا بعمل تحرياتي يا فندم والله مش ساكت.. وبحاول اوصل بس لطرف خيط.

ـ طرف خيط ايه يا سيف؟! الموضوع مش مستاهل كل ده.. انت عندك بلاغات من ٥ سكان ضد الولد ده.. يبقى تجيبه عندك القسم وتتكلم معاه وتشوف ايه حكايته.

ـ يا فندم البلاغات كلها غامضة ومرسلة وحضرتك عارف ان القانون..

ضربة رعد جديدة تهبط على المكتب الخشبي الأنيق.. يتبعها برق لامع من عينين زرقاوين.

ـ إنت هتعملني القانون ولا إيه يا سيف؟ اللي بقول لك عليه تنفذه من غير نقاش.. أنا عايز اقفل موضوع الولد ده في خلال ٢٤ ساعة مش اكتر..

فهمي الشناوي راح مكتب الوزير النهارده الصبح وقدم فيك شكوى شخصيا انك مش عايز تستجيب لبلاغات المواطنين.. وده مش أي مواطنين.. ده فهمي الشناوي يا سيف.

عالم الأرصاد يبتسم في خبث ويدق على جنبات جمجمتي.. ساخرا مني.. ألم أخبرك أيها الغر الساذج أن الرياح شمالية شناوية.. ألم أخبرك أني أتوقع سقوط السيول على أجرافك المترهلة؟!

ـ يا فندم فهمي الشناوي.. قصدي اللوا فهمي الشناوي عايزني اتبع أساليب حضرتك أول واحد علمتنا انها غير قانونية.. وانا ما ينفعش اجرجر مواطن في حاله عالقسم واعلقه عشان يعترف بحاجة ما عملهاش لمجرد ان..

ـ إنت عبيط يا سيف؟ هو حد قال لك جرجره يا ابني ولا علقه.. إنت ما بتعرفش تمشي أمورك.. ابعت له أمين شرطة يجيبه عالقسم بالذوق.. ولو حجر معاه رح له انت شخصيا.. ولو لسه محجر ابعت المحضر النيابة وطلع له أمر ضبط وإحضار عشان تحقق معاه..

ـ يا فندم اعمله أمر ضبط وإحضار ازاي وانا ما اعرفلوش لا اسم ولا معايا حتى رقمه القومي.. ده زي ما يكون كائن فضائي غريب هبط عالعمارة.

تعبيرات فريدة تظهر في السماء.

ـ يبقى تبعت له حد يشوف بطاقته ويعرف اسمه ورقمه القومي يا سيف.. مفيش حاجة تمنع المباحث انها تتحرى عن حد.. وكله قانوني يا سيف.. مش عشان انت قاعد فاضي بقى لك سنة عايز تعمل موضوع من مفيش.

الأمطار تواصل الهطول بغزارة.. ومظلتي تمزقت وسط الرياح الشناوية العاتية.

ـ مشي أمورك يا سيف.. وما تفتحش لنفسك ولينا باب انت مش هتعرف تقفله يا ابني.. احنا مش ناقصين مشاكل من فوق كمان.

يا للحنان الأبوي الجارف.. كلمة (يا ابني) تخترق حشايا قلبي المرهف حتى أوشكت دموعي على الانهار.



اللواء زكي المليجي
ليس مصنوعا من فولاذ صلب كما أخبرونا دائما!

(١٨)

ـ الفيل الأبيض يتحرك من ه ٦ إلى د ٧.. كش ملك.
ـ الوزير الأسود يتحرك من ه ٧ ل د ٧.. الفيل راح.
ـ الفيل محمي بالحصان يا سيف.. كدا انت هتضحي بوزيرك.
ـ مش احسن ما اضحي بالملك يا مصطفى؟!

(١٩)

ـ صباح الخير يا فريدة.. ازيك.
ـ أهلا سيف.. اقدر اساعدك في حاجة.
ـ عايزك تيجي القسم تقدمي بلاغ رسمي.. تتهمي فيه سكان العمارة انهم السبب ورا اختفاء صاحبنا اللي مالوش اسم.

(٢٠)

ـ أبيض.. أسود.. أبيض.. أسود.
ـ سيف.. إصحى يا حبيبي هتتأخر على المعاد بتاع الكلية.

(٢١)

مصطفى يجلس أمامي على المقعد.. يطالع أوراق المحضر الذي كتبه عبد الباقي بيده العجوز المرتعشة فحوله لبردية استخرجت لتوها من مقبرة خفرع.



ـ يا ابن اللعيبة يا سيف.

ـ إيه رأيك؟

ـ هي حلوة وملعوبة.. بس تفتكر يعني الموضوع هيعدي كدا بالساهل.. فهمي الشناوي وصل لحد مكتب الوزير وانت بقيت ظابط مضروب مفك في ملفه عشان بس ما رضتش تمشي امورك معاه.. تخيل بقى لما يتوجه له اتهام رسمي زي ده هيعمل ايه؟

أتراجع في مقعدي وأبتسم ابتسامتي الواثقة.. من قال لك يا مصطفى إني لم أقلب كل الأمور في رأسي بمنطقكم المعاق.. اللواء زكي المليجي يريد الأمور قانونية ويريد التحرك لإرضاء فوق ـ أيا كان فوق ـ إذن فدعنا نتحرك.. هناك بلاغات من خمسة أفراد ضد شخص ما.. وهناك بلاغ من فرد واحد ضد خمسة أفراد.. إذن فلتتشابك خيوط اللعبة ولتدر عجلة التحقيقات.. وليهنأ اللواء زكي في جلسته أمام الوزير بأن القانون قد أخذ مجراه.. وأن التحقيقات على قدم وساق.. وأن الضابط البدين ابن اللواء إبراهيم عبد الفتاح جالس في مكتبه يؤدي دوره على أكمل وجه.

ـ بص يا درش.. انا عملت لهم اللي هم عايزينه.. أظن انا كدا عداني العيب.. وعبد الباقي زمانه جاي من هناك ومعاه بيانات الواد ده حسب صورة عقد الإيجار اللي عند وكيل المالك.. كدا يبقى معانا بني آدم متقدم فيه بلاغات انه كل حاجة وحشة في الدنيا.. ومعانا بلاغ من واحدة ان البني آدم ده مختفي بقى له أسبوع وانه على خلافات مع كل سكان العمارة.. ونحط ده قصاد ده ونكعبل لهم المسائل.. ساعتها فهمي الشناوي هيشرف هنا قدامي واخد أقواله زيه زي أي حد.

ـ أنا بس مش عايزك تحول الموضوع لمشكلة شخصية مع فهمي الشناوي.. الراجل ده سيطه سابقه وإيده لسه طايلة في الوزارة.. وانت مش ناقص مفكات في ملفك.

ـ ساعتها بقى يبقى أمر الله نفذ يا صاحبي.. والأجل محدش يعرف بأخره.. وامي محتاجة حد يساعدها في تقطيع الكوسة والفاصوليا برضه.

نضحك مقهقهين.. ضحكات عالية صخبة كطفلين يتحدثان عن مصيدة نصباها لطفل عملاق غبي في مدرسة إعدادية أوسع مؤخراتها ركلا.. فقررا أن يلصقا ذيلها الورقي في طرف سرواله ليصبح عبرة لمن لا يعتبر.

الباب يدق.. الدقات المكتومة المتسرعة المتوترة.

ـ ادخل يا عبد الباقي

يخطو عبد الباقي بعينين زائغتين.. وقدمين لا تحملانه.

ـ إيه يا عبد الباقي.. مالك وشك اصفر كدا ليه؟

ـ سعادة الباشا انا راجل كبير ومش قد البهدلة.. أبوس رجلك انقلني من القسم ده انا عندي عيال.

ـ في إيه يا راجل انت مالك؟

ـ انا روحت للسمسار زي ما معاليك أمرت.. دخلت المكتب عنده وطلب لي شاي وقعدنا دردشنا شوية ودي زي ما معاليك أمرت.. وبعدين اتكلمت معاه على الشقة اياها وعرفته اني سألت وعرفت ان الشقة اتأجرت من ست شهور وان العقد بتاعها سنوي واني بربط عليها من دلوقتي عشان موقع العمارة والمنطقة والكلام اللي معاليك حفظتهولي.

ـ وبعدين يا عبد الباقي.. اختصر.

تلاحقت أنفاسه وزاغ بصره نحو النافذة المغلقة وكأنما أحدهم يتبعه.. ثم استند إلى طرف المكتب حتى ظننت أنه موشك على الإصابة بأزمة قلبية.

ـ وبعدين بصلي من فوق لتحت.. ونده عالفراش وراح موشوشه في ودنه وبعدين طردني.

ـ طردك؟! إنت قولت له حاجة قبيحة عالشقة ولا إيه؟

نظر نحوي وعيناه تتقافز منهما أشباح ألف ألف بيت مسكون.

ـ رفع سلاحه في وشي وهددني يا باشا.. ولما قولت له اني أمين مباحث في قسم المعادي قال لي بالحرف (قول لمرعي يبطل الشغل الرخيص ده انا ما باكلش منه).

ـ مرعي؟!

ـ اه والله يا باشا.

زفرت حتى كدت أن أحرق وجهه العجوز.. وأشرت له بيدي أن يجلس.. تقدم بخطواته المتهدلة وجلس على المقعد أمامي.. لا بل سقط عليه سقوطا.. رفعت عقيرتي مناديا على عسكري الخدمة فدق الباب دقتين متعجلتين ودخل إلى الغرفة بشاربه الرفيع.

ـ هات يا ابني شاي لعمك عبد الباقي وهات لي قهوة.. وما تخليش حد يخش علينا.

ـ تمام يا افندم.

وخرج محضرا ما طلبته..

صمت عميق غلف الحوائط بلون رمادي قاتم.. عبد الباقي يتنفس بصوت مسموع وأنا صامت أدق بأطراف أصابعي فوق سطح الطاولة..

صمت طال كأنه الدهر.

صمت قطعه دخول المجند الشاب حاملا صينية عليها أكواب زجاجية تركها على المكتب وخرج مغلقا الباب خلفه.

صمت حول نظرات عبد الباقي من لوم مذعور إلى خوف مترقب.

ـ بص بقى يا عبد الباقي.. أنا عايزك تشرب الشاي وانت بتحكي لي كدا بالتفصيل حدوتة العمارة دي من ساعة ما جت البلاغات لحد ما روحت للراجل ده.. بالتفصيل.

ـ حاضر سعادتك.. بالتفصيل.

ـ أيوه.. بالتفصيل.. إشرب الشاي.

تناول كوب الشاي الساخن ورشف رشفتين مسموعتين متلمظا بجودة صنع الشاي.. ثم احتضن كفاه الكوب وصمت.

ـ في إيه يا عبد الباقي؟

ـ إيه يا باشا؟

ـ أنا قولت وانت بتشرب الشاي مش بعد ما تشربه.. إحكي يللا.

وقبضتي تلتف حول سلاحي الميري في درج مكتبي عازمة على إطلاق رصاصتين في رأس عبد الباقي.

أو في رأسي أنا.

أيهما أقرب؟!

(٢٢)

صوت الجرس المتقطع.. ثم.

ـ أهلا سيف باشا.

ـ إزيك يا مرعي؟

ـ نحمده على كل حال.

ـ هو انت بتشتغل مع حد من ورايا يا مرعي؟

ـ ومين قال اني بشتغل معاك يا سيف باشا.. إنت بتطلب مني حاجات بجيبها لك وباخد حسنتي.. وزي ما انت بتطلب غيرك بيطلب.

ـ طب بص بقى يا مرعي.. أنا اسمي سيف الدين إبراهيم عبد الفتاح.. أبويا اللوا ابراهيم عبد الفتاح المحلاوي.. لو ما تعرفوش احب اعرفك عليه.. الله يرحمه كان مدير إدارة خطيرة جدا ومهمة جدا في الداخلية لحد ما طلع معاش.. وحبايبه وتلامذته مغرقين الوزارة.. يعني بكرة الصبح اعمل تليفون تلاقي نفسك مشرف في مكتب في الأمن الوطني بتشرب المر لكعانك وساعتها هتندم على اللحظة اللي عرفتني فيها..

الصمت لغة لا مثيل لها.

لغة أخبرتني بما لم تخبرني به كلماته التي تغيرت إلى الاتجاه المعاكس.

ـ إنت عايز ايه يا سيف باشا؟

ـ بطاقة.

ـ نعم!

ـ عايز بطاقة لشاب عنده ٣٣ سنة.. من أي حتة برة القاهرة.. والصورة



تكون طبق الأصل شبه الأوصاف اللي هقولها لك..

ـ طيب اديني يومين كدا وادبرها لك.

ـ ساعتين.. ساعتين بالدقيقة وتكون قدامي في القسم.

(٢٣)

مساء خميس حار في شهر يونيو.

هذه هي اللحظة التاريخية.

الممر المؤدي إلى غرفة مكتبي من مدخل القسم مزدحم كحافلة ١١٦ وقت الذروة.. العمارة ٦٤ كلها انتقلت بالكامل إلى الممر.. حتى اضطر المجندون والأمناء لجلب مقاعد إضافية من غرف السجل المدني والمكاتب الإدارية الملحقة.

سيرك كامل مكتمل الجوانب.

فقرات الحاوي والأسد الغاضب الموشك على التهام مدربه العجوز وثعبان يتربص بمدربته الحسناء وقرد يتقافز فوق أكتاف لاعبي الترابيز.

مصطفى يجلس أمامي على أريكة طلبت منهم أن يحضروها من المخازن صباح اليوم.. وضعتها في ركن الغرفة وأغلقت الإضاءة من مصباح دائري كبير معلق فوق مكتبي.

ـ إيه جو الساسبنس اللي انت عامله ده؟

ـ الإيحاء حلو برضه وبيعمل شغل يا درش.

ـ بس الجو أوفر جدا يا سيادة المقدم.. إنت محسسني انك هتستجوب متهمين في قضية تنظيم إرهابي لقلب نظام الحكم.

ثم ضحك مقهقها.. ثم صمت متقهقرا أمام وجهي الصامت ونظراتي الجادة.. هو لا يعرف أنني أتلبس شخصية الشرطي الصارم عديم الإحساس.. أتلبسها حتى أتقنتها من فرط التقمص!

ـ إنت بقى تفضل قاعد هنا ما تتحركش.. مش عايز حد يحس انك في

الأوضة وانا هخرج اشوف العصابة اللي برة دي عاملة دوشة ليه.. ويا انا يا هم النهارده.

- مش كنت سمعت كلامي وجبت إذن نيابة واقتحمت الشقة.. على الأقل كان الواد ده بقى معانا دلوقتي وكنت عرفت تجيب الجمل والجمال وكنا خلصنا.

- بص يا درش.. البطاقة دي والورقة المضروبة دي يثبتوا ان في بني آدم كان قاعد في الشقة دي اسمه محمد أحمد محمود.

- محمد أحمد محمود.

لاك الاسم بين شدقيه ساخرا.

- اسم جديد ومبتكر.

- ما علينا.. المهم انه إسم وان له رقم قومي ومعانا صورة من عقد إيجار.. يعني بني آدم وله كيان وله وجود.. البني آدم ده عندي ضده خمس بلاغات أغلبها كيدية - أو دي وجهة نظري - وبلاغ بيقول انه اختفى بقى له أسبوع.. بصراحة كدا المعلومات اللي عندي تقول ان حد من الناس مسئول عن اختفائه.. يبقى انا هنا لحد ما حد فيهم يتكلم.. يا إما النيابة بقى يوم السبت الصبح تشوف شغلها ونبقى كدا في السليم.

- إنت عايز تقنعني انك عايز تبقى في السليم.. طب ده انت عامل الفورتيكة دي مخصوص يوم الخميس عشان ما يقاش في نيابة بكرة وتعرف تتسلى عليهم براحتك.. يا مريض.

قالها ضاحكا.. قالها واثقا.. حتى وإن كان يمزح.. حتى وإن كان يسخر..

ربما كنت مريضا.. وربما كان هو المريض..

ربما كنت أنا من أرى الدنيا من بين عيني الضيقتين مملة وسخيفة.. أراها مربعات بيضاء وسوداء تجزي فوقها أحجار منحوتة أو أقلام ذات سن رفيع.. تتكرر الخطوات والأحرف.. تتكرر مهما تعددت الأيام واختلفت.. ربما كنت أبحث عن أحرف جديدة ونقلات جديدة.. ربما كنت فقط أتسلى.

تسلية مريض.

أنهض إلى الممر وسط الجلبة والمناقشات الجانبية.. أشير لعبد الباقي بطرف إصبعي بينما الأسد الغاضب يقفز من مقعده هاجما علي.

ـ أنا هدفعك تمن القعدة دي غالي أوي يا سيف.

ـ فهمي باشا.. أنا بشوف شغلي بعد إذنك زي ما قياداتي أمرتني.. وانت كدا بتعطلني وبتعطل سير التحقيقات.. يا أمين عبد الباقي.

ـ أيوة يا فندم.

ـ تاخد سيادة اللوا للأوضة اللي جنبنا وتشغل التكييف وتشوف قهوته إيه.. ومحدش يزعجه لحد ما اطلبه يشرفني في المكتب.. كدا تمام معاليك؟

فهمي الشناوي يضيق عينيه.. وشرر الغضب ينطلق ضاربا عينيَّ.. مصطدما بذلك الدرع الساحر الذي غلفتها به.

عبد الباقي يقوده ناحية الغرفة التي نسميها (الاستراحة).. ويسميها المجندون والأمناء هنا (حجز البهوات).

حتى البهوات هنا لهم مكان مختلف!

ـ بصوا بقى يا بهوات انتم والهوانم.. أنا هدخل المكتب ده وحضراتكم هتخشو لي واحد واحد آخد أقوالكم في محضر رسمي.

ـ تاخدها بناء على إيه يا سيادة الرائد؟ إحنا قدمنا بلاغات والمفروض أن حضرتك تشوف شغلك وتحقق فيها.

ـ ما انا بشوف شغلي اهو يا أستاذ بدير.

ـ طيب بعد إذنك أنا عايز ادلي بأقوالي وامشي عشان عندي معاد مهم في المكتب.

ـ لا حضرتك أجل المعاد.. لإنك هتقعد معايا للآخر.. مش بيقولوا ختامها مسك برضه يا أستاذنا؟

ثم نظرت ناحية عبد الباقي الذي اقترب مني مسرعا وأمال رأسه على أذني هامسا.

ـ كله تمام معاليك.

ـ قفلت الباب من برة بالمفتاح.

ـ وأمنت عالعسكري يعمل اطرش.

ـ طيب روح هات رزمة ورق وحصلني على المكتب وتدخلهم بالترتيب اللي هقول لك عليه

أدى التحية فاردًا قامته العجوز فسمعت سلسلة ظهره تطقطق من قلة الاستخدام.. وهرول مسرعا.

نظرت إلى الجمع المتجمع فوق المقاعد مختلفة الأحجام.. أقلب في وجههم وهيئاتهم كنخاس بارع في أسواق الكوفة.

سوف أشتري هذا الغلام بصرة دنانير.

ـ إتفضل يا أستاذ أشرف.. حصلني على المكتب.

ونهض أشرف ممتاز ليتبعني.

(٢٤)

منذ الوهلة الأولى أحببت هذا الكائن.

أو أشفقت عليه.

هذا الرجل وحيد كشجرة كافور.. هذا الرجل يغلف حياته المملة بغلاف مثير من الحداثة والتقدمية حتى يكون صورته التي يرتضيها.

هذا الرجل بريء مما نسب إليه.

مشيته اللينة وثيابه الغريبة غير المكوية ما هي إلا ذلك الغطاء الذي وضعه فوق جسده الهزيل.. شرنقة نصبها حول جسده لتضعه في دائرة الضوء.. صورة الكاتب المحترم الشبيه بأساتذة الجامعات أصبحت من الماضي السحيق.. صورة الكاتب الحداثي ذو الإيشارب المزركش والصندل البني هي الأكثر وقعا في نفوس الناس..

عدل من وضع نظارته البرتقالية.. وسحب نفسا عميقا من سيجارته الرفيعة الطويلة.. أصابعه الخشنة وعروق يديه الظاهرة تدفع الدم دفعا نحو أطراف أصابعه المنمقة.. أظافر منمقة فوق هذه الأصابع الجافة الخشنة شبيهة بباروكة شقراء فوق رأس فتاة من موزمبيق.



- تحب نتكلم رسمي ولا حضرتك تتكلم براحتك احسن؟
- اللي تشوفه حضرتك يا فندم.
- طيب انا قدامي هنا بلاغ مقدم من حضرتك في ساكن شقة ٧.. الدور الثالث من عمارتكم الكريمة انه بيمارس نشاطات مشبوهة في الشقة.. وانك شوفته كذا مرة خارج بيحضن الكيس الاسود وبيروح يرميه في مكان بعيد عن العمارة.. وانك مرة قابلته صدفة في الشارع وهو بيخبي كيس الزبالة جوه الصندوق.

صمت.

- واعتقد كدا ان ده توقيعك على البلاغ قدامي صح.

صمت.

- إيه يا أستاذ أشرف.. انت لسانك كلته القطة ولا ايه؟
- أنا مش عارف حضرتك بتتكلم عن إيه أصلا.
- اللهم طولك يا روح.. كدا مش كويس.. طيب خلينا نشوف الموضوع بصورة تانية.. حضرتك يا أستاذ اشرف متهم بالتسبب في اختفاء المواطن محمد أحمد محمود القاطن بشقة ٧ عمارة ٦٤ شارع الزهور.. كويس كدا؟

صمت

صمت

- ممم.. طيب كدا جميل أوي.. افتح يا عبد الباقي المحضر بقى.

عبد الباقي ينبش بأرجل الدجاجة فوق الأوراق.

- إنه في ساعته وتاريخه وبحضوري أنا الرائد سيف الدين إبراهيم عبد الفتاح رئيس مباحث القسم حضر أمامنا السيد.. البطاقة لو سمحت.

رفع يده المعروقة نحوي بالبطاقة لتقع عيني على الوشم الشبيه برقعة شطرنج مرسومة على شكل قلب.

أتناول البطاقة وعيناي لا تفارقان الوشم.. قلب رسم بعناية وخط داخله مربعات سوداء..

أبيض.. أسود..

أحول نظري إلى صورته الكئيبة في يسار البطاقة وأمامها اسمه الذي كان.

ـ السيد أشرف عبد المهيمن محمد البوجري وشهرته أشرف ممتاز، ويعمل بوظيفة كاتب.. وتوجهنا له بالسؤال في ما هو منسوب إليه من السيدة فريدة عبد الحميد بأنه قد اختطف السيد محمد أحمد محمود القاطن بنفس البناية التي يقيم فيها.. وبسؤالنا له.. س.. من إمتى وانت تعرف المجني عليه؟

صمت

ـ أنا ما اعرفوش

ـ س.. ما هي علاقتك بالمجني عليه؟

ـ جاري.

ـ س.. إيه اللي دعاك تيجي القسم يوم الخامس من مايو وتقدم فيه بلاغ انه بيمارس نشاطات مشبوهة في المحل المذكور في المحضر؟

ـ الكلام ده ما حصلش.

مطرقتي التي تقع في طرف ذراعي البدين تدق على المكتب في عنف.

ـ إنت هتستعبط.. أمال ده توقيع امي على المحضر؟ إديله المحضر يا عبد الباقي.

عبد الباقي يناوله المحضر فينظر له في خواء ثم يضعه فوق المكتب.

ـ أنا ما اعرفش حاجة عن المحضر ده والتوقيع ده مش توقيعي.. واللي حضرتك بتقول عليه ده جاري.. واللي بيني وبينه بس مجرد علاقات الجيرة مش اكتر.. غير كدا انا لا اعرفه ولا اتهمته بحاجة ولا اعرف عنه حاجة.

ـ واتهامك ليه هنا في المحضر انه بينقل زبالة خمس بني آدمين في كيس اسود كل يوم.. واللي أكده اسماعيل البواب في حوار دار بينكم قبل ما تقدم البلاغ بيومين.

ـ وانا هعرف منين أنها زبالة خمس بني ادمين هو انا اشتغلت زبال قبل كدا.. وبعدين لو كنت شوفته في يوم أو اتنين بيرمي زبالته بشكل مبالغ

فيه فده معناه انه راجل نضيف وحريص ما يوسخش مكان سكنه.. مش احسن من الشيخ أمين اللي بيسيب زبالته للقطط تبعترها كل يوم عالسلم.

المطرقة تصدم المكتب من جديد.. هذا المكتب موشك على السقوط صريعا في القريب.

ـ أنا ما سألتكش عن الشيخ أمين ولا الشيخ حسين.. أنا بسألك عن المحضر ده.

ـ وانا قولت لحضرتك اني لا قدمت بلاغات ولا عملت محاضر.

هذا الخواء في العينين.. هذه الإجابات المستقيمة ومخارج الألفاظ الممطوطة.. هذه الاستجابات البطيئة والصمت الطويل قبل كل إجابة.. هذا الاصفرار في قاع اللسان والصفاء المبالغ فيه لبياض العينين.

ـ س.. من إمتى وانت بتتعاطى أفيون؟

ـ نعم؟!

ـ سؤالي واضح.. من إمتى وانت بتتعاطى أفيون؟

خلع نظارته ذات الإطار البرتقالي ومال بجسده الهزيل نحوي.. نظراته يتطاير منها لعاب الجنون وأنفاسه تتصاعد.

ـ أنا ما اسمحش لحضرتك توجه لي اتهام زي ده.

ـ طيب خليني اقولها بصورة تانية.. من إمتى وانت بتعاشر رجالة في شقتك؟

ـ أنا مستحيل استمر في المهزلة دي.

ثم نهض وجسده يرتجف.. يرتجف بلا أي استكانة في أي من خلاياه.. يرتجف حتى انتقلت اهتزازات جسده إلى المكتب الخشبي.

ـ طيب اتفضل استناني برة.. مضيه على أقواله يا عبد الباقي.

عبد الباقي يناوله القلم ليسقط من يده ألف مرة.. يتناوله بيده اليسرى وهي ترتعش فتسقط نقاطا بلا داعٍ فوق الورقة.. يلملم شتات كرامته ويخط اسمه.. يخرج مرتجفا ونظارته البرتقالية لا تزال على الطاولة الصغيرة.

ـ ألا هو صحيح يا باشا الراجل ده استغفر الله العظيم بيعاشر رجالة.. دبلة لا مؤاخذة؟

ـ لا يا عبد الباقي.. الراجل ده لا بيعاشر رجالة ولا هو دبلة.. الراجل ده عايز كل الناس تقول كدا عشان مش هيعرف يعيش من غير ما يخلي الناس تتكلم عنه في الرايحة والجاية.

ـ يقوم يطلع على نفسه سمعة.

ـ السمعة دي هي اللي هتخلي واحد زيه يتعرف والناس تشاور عليه.. وبعدين السمعة دي ما بقتش سمعة أوي يا عبد الباقي.. ده ممكن كمان يلاقي اللي يدافعوا عنه ويشتموا اللي بيقول عليه كدا..

ـ أعوذ بالله.

ـ بطل رغي ودخل لي المدام ام شعر ابيض..

نهض مهرولا نحو الباب.. بينما تناولت المحضرين القديم والجديد ورحت أنظر للتوقيعين.

ـ لا ناصح.. بيمضي محضر باليمين ومحضر بالشمال..

(٢٥)

ترفع أنفها الضخم المعقوف نحوي في تأفف.. ومروحة يدها المزركشة تضرب الهواء.

ـ أنا مش فاهمة حضرتك بتسألني نفس الأسئلة بقى لك ربع ساعة وانا بجاوبك نفس الإجابات حضرت ما بتزهقش.. كدا plus ennuyeux.

ـ وانا بقى لي ربع ساعة بقول لحضرتك تكلميني عربي بس.. لغة الأغ مابتتكتبش في محاضر رسمية.

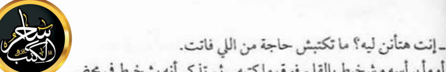
ـ Pardon

عبد الباقي يرفع عينيه من على الأوراق وينظر لي في غباء.

ـ حضرتك انا اكتب اللى فاتت ازاي؟

ـ بردون.. يعني آسفة يا عبد الباقي.

ـ لا اللي قبلها.. بلوس إينن..



ـ إنت هتأنن ليه؟ ما تكتبش حاجة من اللي فاتت.

أومأ برأسه وشخبط بالقلم فوق ما كتبه.. ثم تذكر أنه يشخبط في محضر رسمي فمزق الورقة وتناول أخرى ووضع طرف القلم فوقها.

ـ يعني حضرتك ما قدمتيش بلاغ بتتهمي فيه الأستاذ اللي ساكن في الدور الثالث انه هددك وتعدى عليكي لفظيا عشان اختلفتوا على سلك الإنترنت.

ـ يا فندم دي كانت مجرد مشكلة بسيطة بين اتنين جيران وراحت لحالها.. لكن هو ما كررهاش تاني وكان tres agreable معايا بعدها.. ده احنا حتى اتقابلنا صدفة في المدخل واداني وردة واعتذر لي بكل ذوق.

ـ يا فندم.

ـ لطيف جدا يا عبد الباقي.. ترجمتها لطيف جدا.. وانتي يا مدام أرجوكي ارحميني من الفرنساوي ده انا هلاقيها منك ولا منه؟

نظرت لي في اشمئزاز وكأني صرصور مجاري.. وراحت تضرب بالمروحة المزركشة بسرعة في الهواء.

سيدة من ذوات الدماء الزرقاء.. من أصول باشاوية لا تخفى على عبد الباقي نفسه.. كان ينظر لها في رهبة منذ أن دخلت الغرفة وكأنها من كوكب سرمدي بعيد.. فقط لو أنها توقفت عن إظهار إعجابها باللواء فهمي الشناوي وفحولته الظاهرة من أزرار قميصه المفتوحة.. كلما ذكرت سيرته توتر طرف شفتيها وارتعشتا في نشوة.. هذه السيدة تحلم به كل يوم.. غرام في الستين

ندت مني ابتسامة ساخرة وأنا أتناول كوب القهوة البارد لأرشف منه في صوت مسموع قاصدًا إثارة المزيد من نعرات الاشمئزاز في قسمات وجهها الأرستقراطية..

ـ حضرتك أرملة؟

ـ لا.

ـ مطلقة؟

- هيفرق مع حضرتك في حاجة؟
ونظرت لي في استنكار أرستقراطي صامت.
- بص يا سيف بيه.. المفروض ان ظابط البوليس يشوف شغله ويلم الأوباش والحرامية اللي في الشارع بدل ما يبهدل ولاد الناس ويمرمطهم في الأقسام في نصاص الليل عشان يسألهم في أسئلة شخصية هو مالوش علاقة بيها.. إنت سألتني سؤال عن جاري العزيز وانا جاوبتك بصراحة.. d'accord.. ممكن امشي عشان معاد نومي جه.
- مضي الهانم على أقوالها يا عبد الباقي.
نهض عبد الباقي مهرولا وانحنى نصف انحناءة أمام السيدة الأرستقراطية الشامخة لتوقع بأحرف لاتينية منمقة على أوراق المحضر.. ثم تنهض طاوية مروحتها وحاملة حقيبتها الجلدية الأنيقة.
- أجيب اللي بعدها يا فندم؟
- لا روح اطمن على اللوا فهمي احسن يكون جات له أزمة قلبية ولا حاجة.. وخليهم يجيبولي اتنين قهوة.
- حضرتك هتشرب لوحدك اتنين قهوة؟
- وانت ما لك يا عبد الباقي.. هو انت مسكت التعيين في القسم وانا ما اعرفش؟ إخلص.
أومأ برأسه ثم خرج مهرولا بقامته العجوزة الهزيلة.
- ها يا سيف.. إزي الحال؟
- أنا ما بقتش فاهم الصراحة.. الناس دي يتغير أقوالها ليه؟
- أو يمكن بتصلح أقوالها.
- مش منطقي يا درش..
- بالعكس.. ده هو ده قمة المنطقية.. لما يكون جارك مضايقك وخانقك ممكن تتهمه انه هو اللي فجر برج التجارة في ١١ سبتمبر.. لكن لما جارك ده يتخطف أو يختفي طبيعي انك هتبعد عن نفسك اي شبهة خلاف معاه.. دي طبائع بشرية وانت سيد العارفين.

- يا واد انت يا فيلسوف عصرك.. عموما لسه في ٣ برة ما اتكلمناش معاهم.. وانا الموضوع الصراحة بدأ يشدني وعايز اعرف أخرته.

- بس خليك حنين مع المزة.. بلاش تضايقها احسن تقفل منك.

- طب روح اقعد مكانك يا وسخ واطفح القهوة وانت ساكت.

يدق الباب ليدخل المجند حاملا كوبي القهوة.. يضعهما على المكتب ليقف أمامي منتصبا وكأنه حارس قصر باكينجهام.

- خلاص يا ابني شكرا.. وفك التخشيبة دي انت مش في تشريفة.

- تؤمر بحاجة تانية يا باشا؟

- قول للأمين عبد الباقي يجي ويجيب في إيده الراجل الملتحي اللي برة.

أدى التحية وجسده ما زال متخشبا.. ثم لان وكأنه عود مكرونة تم إلقاؤه في قدر ماء مغلي وهو يخرج من الغرفة وقدماه تزحفان بأسوأ صوت عرفته البشرية.

مصطفى تناول قهوته ورحل إلى ركنه المظلم واضعا ساقا فوق ساق مشعلا سيجارته العشرين.

ركن أسود.. ومكتب أبيض.

النقلة القادمة لي

(٢٦)

البيدق الأبيض من ه ٤ إلى ه ٥.

الحصان الأسود من و٧ إلى ه ٥.

البيدق الأبيض خارج اللوح.

(٢٧)

- ما هو كدا احنا ما بنقولش حاجة مفيدة يا أستاذ أمين.

ـ والله يا فندم زي ما بقول لحضرتك كدا.. الراجل كان في منتهى الأدب والذوق.. من البيت للمسجد ومن المسجد للبيت.. ده كان بيصلي معايا الفجر حاضر في أول صف.

ـ وفريدة اللي سمعتك بتستعيذ بالله من الفسق والفجور اللي ظهروا في العمارة مع ظهوره؟

ـ دي واحدة مفترية وظالمة.. مستني إيه من بنت عايشة لوحدها وبتخرج وتخش على مزاجها.. واحدة ماشية على حل شعرها هتقول ايه عن ولاد الناس المتدينين.. ولا عشان هي ست وانا راجل ملتحي يعني.

ـ طب امضي على أقوالك وامشي بقى بدل ما البسك تهمة تانية.. إمضي.

(٢٨)

رأسي

٤ ـ يظهر عكس ما يبطن (معكوسة).

٥ ـ اسم الحاسوب الذي هزم بطل العالم يوري كاسباروف في مباراة الشطرنج.

(٢٩)

ـ يعني حضرتك ما مسكتش في خناقه يوم ١٤ مايو اللي فات وقعدت تزعق في التليفون عالسلم وانت بتكلم واحد صاحبك وبتقوله أن الولد إرهابي وهددك؟

ـ بص يا سيف باشا.. أنا مدرس محترم وعايش في حالي.. لا لي في إرهاب ولا غيره.. ممكن اكون كلمت واحد قريبي اشتكي له.. لكن غير كدا..

ـ وقريبك جه هنا وعمل محضر اتهم فيه جارك انه هددك عشان انت مسيحي.

ـ شوفت بقى حضرتك مين اللي بيدخلنا في مسائل شائكة ما لهاش أي لازمة؟

ـ ما تلاعبنيش يا أستاذ ألبرت.. أنا خلقي ضيق وما بحبش اللف والدوران.

ـ غريبة مع إن حضرتك عندك شطرنج في المكتب.. واللي بيلعب شطرنج باله طويل وما بيزهقش.

ـ طب امضي على أقوالك واستنى برة.

ـ أنا معاد نومي قرب والساعة داخلة على..

ـ إتفضل استنى برة.

(٣٠)

يجلس أمامي متشابك الأيدي مفرود القوام.. ملتحفًا جلبابا صعيديا مفتوح الصدر أسفله صدرية تمنحه مظهرًا يليق به.. عندما رأيته لأول وهلة لم أتخيله في ثياب الأفندية كما يسميها.. لو وضعت هذا الجسد وهذا الوجه في قميص وبنطال من الجينز لكان شبيها بمن يلف ساندوتشات الكبدة في ورق سلوفان.

ـ إزيك يا سمعة.

ـ نحمده على كل حال يا بيه.

ـ إنت بواب العمارة دي بقى لك قد إيه؟

ـ بقى لي يجي عشرة حداشر سنة يا بيه.

الحروف الصعيدية الجافة تبرز من بين لهجة قاهرية متحطمة.

ـ طب بص بقى يا ابو السباع.. أنا عايزك تحكي لي كدا من الأول خالص.. من أول ما صاحبنا ده نزل من باب التاكسي لحد ما الكلام عنه كتر والسكان بدأت تشتكي منه.

ـ هو بلا مؤاخذة يا بيه.. أنا ما سمعتش حد بيشتكي منه واصل.

ـ لا إسماعيل.. إنت كدا بديتها معايا عوق.

ـ ربنا ما يجيب عوق يا بيه.. أنا بقول لك الصراحة ومقام المصطفى.

ـ طب قول لي الصراحة يا سمعة.

ينظر يمينا ويسارا والعرق البارد يتسرب من مسام جلده على جبينه العريض وفوق شعيرات شاربه الكث.

ـ ممكن اولع عامود دخان؟

ـ وما له.. إديله ولاعة يا عبد الباقي.

نهض عبد الباقي وناول ولاعته لإسماعيل الذي نهض نصف قومة أشعل فيها سيجارته وربت على صدره شاكرا.. ثم سحب أنفاسا تليق بشارب جوزة محترف.. وملأ سماء الغرفة سحبا بيضاء كثيفة.

ـ بص يا بيه.. من يجي سبع تمن تشهر كدا كنت قاعد قدام باب العمارة بقرا الجرنان.. لقيت واحد نازل من تاكسي ابيض في اسود شايل شنطة على كتافه وشكله كدا شبه بياعين السريحة بتوع اليومين دوله.. العيال اللي بتلف بالصابون وجزايز الريحة عالبيوت.

ـ مفهوم مفهوم.. وطبعا ما سبتوش يخش العمارة من غير ما تعرف رايح فين؟

ـ الشهادة لله هو ما استنظرنيش يا بيه.. هو طلع العقد ووراهولي وطلب ولعة.. وبعد ما ولعت له السوجارة طلب حد ينظف الشقة.

ـ وجبت له حد ينظف الشقة.

رفع رأسه في إباء وهو يرسل نظراته ناحية عبد الباقي.

ـ لا يا بيه ولا مؤاخذة.. أصل احنا مش مخدماتية ولا بتوع نظافة.. أنا حارس عقار جنابك.. واحنا عالم غلابة وبناكل عيشنا بس باحترامنا.. مش كدا ولا إيه يا بلدينا.

ـ تمام يا ابن عمي.

كانت هذه من عبد الباقي الذي مصمص شفتيه وهز رأسه متأثرا وهو يكمل كتابة ما ألقاه إسماعيل من فمه.. ثم رفع رأسه ليجد نظراتي التي تكاد تخترق حنجرته.

ـ وبعدين يا اسماعيل.

ـ ولا قبلين يا بيه.. من يوميها وما سمعنلوش حس واصل.. راجل طيب وفي حاله.. يدخل البيت المسا وينزل الصبح.. زبالته بياخدها في يده وعتبة شقته نظيفة وبتبرق..

ـ يعني مفيش يوم طلب منك حاجة كدا ولا أمر كدا.

ـ ولا أي حاجة يا بيه.. الراجل في حاله.. حتى لما حد من السكان يجي يشتكي منه في أمر كان بيصلحه طوالي.. ربنا يفك ضيقته ويرجعه بالسلامة.

ثم أطفأ (السوجارة) وهو يهز رأسه متحسرا على الشاب الكريم الأصيل ابن الناس الذي غاب.. والزمن الذي لا يظلم إلا أولاد الأصول.

ـ طيب يا سمعة.. إمضي على إقوالك انت واتكل.

ـ تؤمرني يا بيه.

ثم نهض ووقع على أقواله وهو يربت على صدره شاكرا عبد الباقي.. وصافحه في قوة وكأنهما أولاد عم واستدار مغادرا.

ـ بقول لك ايه يا اسماعيل.

ـ أؤمرني يا بيه.

ـ الراجل لما وراك العقد.. مش فاكر كان اسمه ايه؟

ـ لا يا بيه الكدب خيبة.. أصل انا يا بيه راجل أمي.

ـ أمك ازاي يعني؟

هرش رأسه في إحراج وهو ينظر لي وإلى عبد الباقي.. أنت لا تعرف القراءة يا إسماعيل.. إذن فماذا تفعل الجريدة في يدك صباحا مساءً؟

ـ طيب يا اسماعيل اتوكل انت.

ربت على صدره ورفع يديه ملقيا السلام مغادرا.

ألقيت بجسدي إلى الخلف وحللت آخر زرين من قميصي تاركا العنان لكرشي كي ينطلق في راحة وأنا أمسح على وجهي طاردا ذرات الخيبة من فوق قسماته الممتلئة.

عبد الباقي يراقبني صامتا.. واضعا الغطاء فوق القلم الجاف.

يا ترى ماذا يظن بي عبد الباقي الآن؟ هل يشك في قدراتي كضابط شرطة لا يستطيع حل مسألة كهذه؟ هل يعتقد أنني تافه متحذلق أحب أن أعقد الأمور كي أصنع منها إثارة تحطم أعمدة الملل التي تحمل سقف حياتي؟

ـ ايه رأيك يا عبد الباقي؟

ـ في إيه يا باشا؟

بالطبع ليس رأيك في أيها الغبي.. أسألك عن رأيك في القضية.

ـ في الموضوع اللي احنا فيه ده.

ـ والله يا باشا انا شايف الحدوتة كدا ناقصها حاجة.

ـ إزاي بقى؟ احكي لي.

اعتدل في جلسته وأخرج سيجارة من جيب سترته الميري وهو ينظر لي مستغيثا.. إشارة من يدي أعطت الأمر لأصابعه فأشعلتها.

ـ أنا صحيح يا بيه شرفت عالمعاش خلاص.. بس انا مش مجنون ولا خرفت.. أنا قابلت الناس دي كلها هنا في القسم انا وحظابط النبطشي.. وكلهم يا عملوا محاضر يا قدموا شكاوي في الراجل ده.. واسماعيل ده انا قعدت معاه ساعة نشرب شاي ونحكي من سبوع.. وكان كلامه عكس اللي اتقال ده كله.

ـ إسماعيل كداب يا عبد الباقي وأغلبهم كدابين.. بس ليه يكدبوا.. هيخسروا ايه لو اتكلموا وقالوا انه كان ابن ستين في سبعين؟

ـ هيحصل انك هتقعدهم برة يا بيه بالساعات زي ما عملت في اللوا الشناوي.. وهتفضل تقرر فيهم وتعلقهم وتطحن اللي خلفوهم لحد ما حد منهم يقول (أنا اللي خطفت الواد ده وتاويته).. ولو اني عارف انك ما تعملش كدا.

ـ ليه بقى؟

نفث من دخان سيجارته وهو يبتسم.. ابتسامة عارف بالأمور.. ابتسامة من خبر الدنيا حتى صارت فتاته المفضلة.

ـ إنت ابن ناس يا سيف باشا.. لا ليك في تعليق ولا طحن.. إنت بتفكرني

بظابط ابن ناس برضه اشتغلت معاه في المديرية زمان.. كان ابن ناس برضه ومالوش في الشغل ده.. بس الله يمسيه بالخير بقى استقال وقعد في البيت.

ـ وتفتكر كدا استقال ليه؟

ـ ما عجبوش الحال يا باشا.. كان الله يمسيه بالخير فاكر انه ظابط في مباحث نايورك.. بس الشهادة لله كان راجل جدع وابن أصول.. رقوه مقدم ونقلوه المخدرات بس هو ما رضيش أبدا وراح مستقيل.. عقبى لك كدا يا باشا.

ـ عقبى لي في إيه بالظبط؟

ـ ها.. عقبى لك لما يرقوك مقدم كدا.

صمت أمام نظراتي التي تلسعه بسوط من لهيب.. ثم رفع عينيه فجأة وهو ينظر إلى نقطة خلفي.. لو أني لا أعرف عبد الباقي لظننت أنه يلعب معي تلك اللعبة السخيفة كأننا طلبة في الثانوية.. ثم..

ـ طب ما انا عندي فكرة يا باشا.

ـ قل كدا.

ـ ما تعمل زيارة لعماد باشا.

ـ عماد باشا مين؟

ـ الظابط اللي كنت بحكي لك عنه.. هو صحيح قاعد في البيت دلوقتي.. بس والله يا بيه اشتغلت معاه أربع سنين ونص مفيش قضية عمرها استعصت عليه.. ده كان أصغر واحد يترقى مقدم في دفعته.. طب ده حتى..

ضحكة ساخرة ثلاثية الأبعاد ارتسمت على وجهي.. ثم قهقهة بلا أي سبب.. عبد الباقي يحمر وجهه محرجًا وأنا أشير له بطرف إصبعي أن يرحل من الغرفة.. قهقهتي تتواصل ساخرة من أفكاره العجوزة المتهتكة.. يريدني أنا سيف الدين إبراهيم عبد الفتاح أن ألجأ لضابط كان يعمل في مباحث العاصمة ثم أحالوه إلى الاستيداع أو استقال، كما يقول لأنه لم يستطع تحمل واقعنا الأليم!

الحقيقة أني أعرف لماذا استقال.. أعرف أنه كان..



ـ وما له يا سيف؟
ـ وما له إيه يا مصطفى.. إنت خرفت انت كمان؟
ـ إنت لسانك بقى طويل أوي مؤخرا.

مصطفى يدخل دائرة الضوء ويجلس واضعا ساقا فوق ساق مشعلا سيجارته المستوردة.. لتصنع خليطا مع دخان سيجارة عبد الهادي السوبر. وتصنع كلماته سحبا منعقدة في سماء عقلي.

ـ طالما انت شايف ان الموضوع معقد وانك مش عارف تستوعبه.. يبقى ليه لا؟

ـ يا مصطفى ده واحد شالوه من المباحث وأحالوه للاستيداع.. يعني كسر.. خرج بيت.. إحالة للتقاعد بس شيك وبترقية.

ـ إنت اللي الصراحة بقيت بتفذلك الأمور كلها من غير داع.. ما يمكن هو اللي طلب ولا استقال.. اللي اعرفه عنه أنه ظابط كفء.

ـ كفء! إيه الكلمة القديمة دي؟ أيا كان.. أنا شخصيا مش محتاج حد يقول لي اعمل ايه في قضية زي دي.. أخرتها هجيب إذن النيابة بعد بكرة الصبح واكسر الشقة وساعتها العقد كلها هتتحل.

نظر مصطفى في ساعته.. ثم فرك عينيه.

ـ تقصد بكرة الصبح.. الساعة ٢ صباحا.

ـ طب قوم روح لمراتك وعيالك وبكرة نبقى نكمل.

ـ لا أنا بكرة أجازة.. أنا راجل متجوز وعندي عيال يا سيدي وعايز اشم شوية هوا.. لما تبقى تحتاجني ابقى كلمني.

ثم نهض وأشار بيده كأنما لا يعرف إذا كان ذاهبا أو آتيا.. دخان سيجارته التي لم يكمل إطفاءها في المنفضة الزجاجية يتصاعد كعفريت المصباح.. وهو يرحل موليا الأدبار.

أنا رجل متزوج..

كلمة أسمعها منه كثيرا هذه الأيام.

أسمعها منه.. ومن إسماعيل البواب.. ومن سايس الجراج.. ومن البقال والخضري.. ومن عبد الباقي.

أعود بعقلي مديرا محركاته إلى الخلف.. إلى هناك عندما جلست أمي بجواري في صالون فخم.. تجاهد كي تتكلم في هدوء رصين وأنا أجاهد لأحبس حبات العرق أسفل ثيابي.

- وسيف ولله الحمد اتنقل القاهرة من يومين.. يعني لا سفر ولا شحططة..

- إحنا لينا الشرف يا مدام يسرية.. وبعدين الست تروح ورا جوزها في أي حتة.

- دول ولاد الأصول يا حبيبتي والله.

- بس احنا كنا عايزين نسأل على حاجة.. هو سيف باشا عامل ترتيباته للجواز.. يعني الشقة والشبكة والحاجات الصغيرة اللي بتلزم الجواز دي.

أمي تضع كوب العصير وتحدجني بطرف عينيها.. وقطرة عرق تفلت من جبيني منحدرة نحو عيني.

- إحنا قاعدين في شقة كبيرة أوي أوي في مدينة نصر.. هنقسمها عشان العرسان.. وان شاء الله سيف هيفرشها أحسن فرش عشان عروستنا الحلوة.. والشبكة والمهر والحاجات دي كلها تقدير العريس لعروسته.. مش كدا برضه.

وجه ملتوٍ وشفتان مزمومتان.. وعينان تلتقيان والرفض يفيض منهما.

وأسبوع يمر كسنة.. يليه أسبوع يمر كقرن.. ثم رفض يحطم رقما قياسيا جديدا.

تعددت الأسباب.. والرفض واحد.

أنت بدين لا بد من ريجيم قاس.. كيف تريدها أن تعيش مع أمك.. سيارة كورية موديل ٢٠٠٠.. وأنت رائد.. الشبكة ستون ألفا كما كانت شبكة بنت خالتها دوقة يورك!

وعقدة لا تنفك.

أمسك هاتفي المحمول.. وأبحث.

بعد كل هذه السنين التي أكلت من رأسي ومن رأسه.. يأتي أمامي من جديد.

أبحث في الأرقام بهدوء.. تتراقص أمامي على شاشة الهاتف كتراقص السنين فوق بندول ساعة عملاق.

ـ تعالى يا سيف.

ـ أيوة يا بابا.. إنت مش هاين عليك تسيبني اكمل الماتش.

ـ تعالى بس وابقى كمل الماتش بعدين.

طفل على وشك أن يزدهر شاربه يقترب من أبيه فارع القوام منتفخ الأوداج.. ينظر إلى منافسه الذي أوشك على أن يقفز من مقعده فيتشابكان في معركة بالأيدي والأقدام..

ـ سلم على عماد.. ده ابن اللوا محمد حمدي.

ـ أهلا.

ـ أهلا.

أمد يدي الممتلئة فيقبض عليها بيد نحيفة تلتصق بجسد ممشوق لمراهق في بدايات سنين مراهقته..

ـ يلا خد عماد معاك عشان تشوفوا الماتش سوا.

ـ آه طبعا يا بابا طبعا.

عماد.. وماذا تعرفون عن عماد كي تنصحونني باستشارته.

ـ وانت بقى أهلاوي ولا مع التانيين.

ـ لا أنا مع التانيين.. سيبني اتفرج بقى وخليك في حالك.

زملكاوي ونافذ الصبر.. معا!

ضابط ابن ناس ومحترم.. كما قالها عبد الباقي.. كلنا أولاد ناس.

ضابط كفء.. كلنا أكفاء..

يقدس القانون كما عرفته دوما.. لو كان للقانون معبد لكنت أنا كاهنه!

عماد ابن اللواء محمد حمدي.. لا بل الأول على دفعتي.

ـ أنا مش عارف انت مضايق ليه.

ـ يعني ليه هو يروح الدرب الاحمر وانا اروح الصعيد.. ولا عشان ابوه كان لوا أمن دولة وانا ابويا لوا مـ؟

ـ إنت هتصنفها على مزاجك؟ هي كدا يا سيف ما تفكرش فيها كتير يا ابني.

أمي تمنحني الكلمتين وعيناها معلقتان بـآثار الحكيم تخبر ممدوح عبد العليم أن الحب ليس وحده هو الحل بينما أصابع يدها المكتنزة ـ أمي بالطبع ـ تعبث بحبيبات البازلاء لتخرجها إلى العالم من قشرتها الخضراء الجافة.

عماد الذي رغم كل شيء كان رجلا.. كان هو من رفض أن يبقى في ظلمة وضعوه فيها قهرا لأنه رجل.

بينما انت ترضى أن تبقى يا سيف!

الرقم أمامي.. وأصابعي تتردد.. لا تقوى على لمس الشاشة.. عقلي لا يحب ذلك.

هل كان هذا هو شعوره منذ ثلاث سنوات؟

ـ أيوه يا سيف ازيك؟

ـ عمدة.. أخبارك ايه وأخبار المباحث ايه على حسك؟

ـ كنت عايزك في خدمة كدا..

محادثة منذ ثلاث سنوات حفزت عقلي أن يصدر أمرًا إلى إصبعي.. لم لا؟ فلتكن خدمة مقابل خدمة.. قضية كانت من أكبر ما واجهه ساهمت ملاحظاتي في حلها.. بل كانت عاملا رئيسًا في فك شفرتها.

وقضية صغيرة بسيطة ربما تضع كلماته حرفا في طريق حلها.

لم لا.. لم لا؟!

(٣١)

ـ مساء الخير يا عماد باشا

ـ سيف عبد الفتاح.. يخرب بيتك.. إنت فين؟

ـ في الدنيا يا باشا.. من ساعة ما عرفت انك استقلت وانا نفسي اكلمك بس والله القسم معبي قضايا.

ـ ربنا يعينك معلش.. قل لي بقى المكالمة دي ليها سر ولا؟

نعم يا عماد بالطبع.. لسنا أصدقاء حتى أتصل بك بعد خمس سنوات لأخبرك أني أشتاق لك بالتأكيد!

ـ الصراحة انا كنت عايز اقابلك ادردش معاك في موضوع كدا.

ـ موضوع ايه خير؟

ـ حاجة تخص قضية بسيطة عندي.. بس الحقيقة مش هيخدمني فيها حد غيرك.

ـ والله وجه الزمن اللي سيف عبد الفتاح بيكلمني انا يستشرني.

هل يسخر مني أم أنني أتخيل ذلك؟

ـ هنعمل ايه بقى يا باشا.. بقول لك القضايا كتير والحقيقة انا قولت استفيد من خبرتك في المباحث.. زي كدا ما كلمتني ساعة قضية الكلمات المت..

ـ مفهوم يا باشا أكيد.. اؤمرني خير؟

(٣٢)

أقود سيارتي الكورية موديل ٢٠٠٠ بسرعة خمسة سلحفات في الساعة متجها ناحية حي القلعة

يمينا ينتصب مسجد محمد علي فوق الهضبة المرتفعة خلف ذلك السور الذي قفز مراد باشا من فوقه بحصانه هاربا من مذبحة أتت على كل بني جلدته.. وأمامي مسجد الرفاعي ينصب مأذنه في وجه مؤذن مسجد السلطان حسن.

أبحث عن مكان ألقي فيه سيارتي.. يحتل قسم الخليفة المساحة التي تشرف على الميدان الواسع.. وشاب يرتدي بنطالا ممزقا ويضع فوطة صفراء فوق كتفه يشير لي واعدا إياي بالمكان المناسب.

ومصطفى كعادته يعترض!

ـ إنت هتسيب العربية هنا؟!

ـ آه طبعا.. ده آأمن مكان ممكن اسيب فيه العربية يا درش.. الراجل ده هيحمي العربيات إكتر من القسم نفسه بس انت انفحه نفحته وهو هيبقى تمام.

ـ انفحه نفحته.. إنت بتتكلم كأن انا اللي..

ـ طبعا يا درش.. الراجل كلم صاحبه وقاله ان سيف جايلك في الطريق.. يبقى لازم سيف بس اللي يروح له.. إحنا ناس بنفهم في الذوق والأصول يا درش.

ثم ألقيت بالسيارة بجوار السور الحديدي القصير.. الذي يحيط بحديقة جرداء تملأها حشائش وقاذورات وبراز كلاب ضالة.. فقط لأجد ذلك البنطال الممزق المليء بالشحوم والفوطة الصفراء القذرة تزيد من قذارة زجاج سيارتي.

ـ هتطول يا باشا؟

ـ آه شوية.. الباشا هناك اهو في العربية هيظبطك.

ـ بس يا باشا.

لم يكمل جملته حتى تدحرجت قامتي الرشيقة جدا ـ جدا ـ نازلة من ميدان صلاح الدين الفسيح نحو ناصية شارع الخضيري.. أو شيخون.. أو قدري.. أو سمه كما تحب أن تسميه.. كلها أسامي ربنا.

أصعد درجات السلم القديمة التي طليت ببلاط مشروخ حولها إلى منزلقات متدرجة.. ساندا بكف يدي على درابزين قذر.. السلم ضيق.. لكنه رطب لطيف الهواء.. وهو ما يبين كيف أن مصممي بنايات هذه الأيام يتفننون في تعذيب من ينضح عرقهم عندما يتنفسون مثلي.

أدق الباب في هدوء.

صمت

صمت

أدق الباب في تعجل.

صمت



صمت

أدق الباب في تبرم.

فيفتح الباب

(٣٣)

قامة طويلة.. وذقن نابتة.. ونظرات ذات إطار أسود.. وقميص أبيض عليه شعار الرجل الوطواط الأسود.

وبنطال جينز قديم أزرق.

ـ الأستاذ

ـ إتفضل.. قهوتك ايه؟

ثم تركني على الباب الخشبي القديم ذي الشراعة ودخل إلى الشقة.

أخطو خطوات حذرة داخل الشقة.. أتفادى العتبة المرتفعة التي ثبتها لتمنع الفئران والحشرات من التسلل من عقب الباب.. تصدمني حجرة صالة صغيرة امتلأت بأثاث قديم غطي أغلبه ليقيه من فياضانات الأتربة.. ونافذة واسعة فتحت ليظهر من طرفها مسجد محمد علي، أصوات تقليب في المطبخ القابع في طرف الشقة.. وصورة لرجل حازم يشبه محمود مرسي وضعت في إطار خشبي أنيق.

ـ قهوتي

ـ مضبوطة.. قهوتك مضبوطة.

صوته يأتي من المطبخ القصي.. فأخطو متتبعا الصوت والضوء محاذرا الاصطدام بقطع الأثاث العملاقة القديمة.

ـ خلي بالك من البلاطة اللي..

هل رأيت جبل المقطم يسقط على وجهه؟

بل ويبتلع كيلو جراما صافيا من الغبار من سجادة قديمة رمت أطرافها.

يده المعروقة القوية تتناول جسدي فتنفصد جبهة صاحبها عرقًا وهو



يحمل مئة وثلاثين كيلو جراما من الدهون.
أو مئة وأربعين.. لا أذكر..
ـ مش بقول لك خلي بالك من البلاطة.
ـ ممكن اشرب مية لو سمحت.
أراحني فوق المقعد الخشبي العملاق.. وجلب طاولة صغيرة وضعها أمامي.. ثم عاد من المطبخ بقدحي قهوة وزجاجة عصير حولتها العادة المصرية الأصيلة إلى زجاجة ماء.
ـ معلش أصل البلاطة دي قبة من الأرض.
ـ قبة.
ـ آه قبة.
ثم ارتسمت ضحكة على قسمات وجهه المنهكة الوسيمة ما لبثت أن أفصحت عن نفسها.
ـ حضرتك المقدم سيف عبد الرحمن صح؟
ـ عبد الفتاح.. التاني ده ممثل.
ـ آه صحيح.. معلش اصل انا من قلة سمعي للأسامي الثنائية مخي صدى.
ثم أشار ناحية القهوة ومد يده فوق الثلاجة المجاورة وجلب علبة خشبية فتحها وأخرج منها غليونا خشبيًا أنيقا راح يحشوه تبغًا.
لحظات من صمت خام.
صمت لا يقطعه سوى صوت رشفات قهوتي التي ما زادته إلا إزعاجًا!
ـ معاك ولاعة يا سيف باشا.
ـ لا أنا ما بدخنش.
ـ مم.. طب ثواني اجيب الكبريت من المطبخ واجي.
ونهض بخطواته البطيئة نحو المطبخ.. فراحت عيناي تمارسان هوايتها في تقليب الشقة.
شقة عتيقة لكن نظيفة.. مؤثثة لكن أثاثها صنعته يد من صنع غرفة نوم

الأمير طاز.. لا يقطع اتساقها مع نفسها إلا تلك الثلاجة حديثة الطراز وذلك المنبه البلاستيكي القابع فوق طاولة تحتل ركنا قصيًا.

ثلاثة أبواب مغلقة.. ذات شراعة زجاجية في ربعها العلوي.

ـ عجبتك الشقة؟

وجدته جالسًا أمامي واضعا ساقا فوق ساق وغليونه مشتعل ونظارته متزلقة على أنفه وعيناه تحدقان في وجهي ببرود.

ـ هي حلوة الصراحة فيها عراقة كدا.

ـ حلوة عراقة دي.

ـ بس ما اعتقدش انك عايش هنا لوحدك..

ـ إزاي بقى؟

سقط العصفور في شرك الصياد البدين.

ـ العفش جميل ومرتب جدا والتراب اللي عليه تقريبا شبه معدوم.. رغم ان الشباك مفتوح تقريبا من الصبح واليوم النهارده كان مترب شوية في أوله.. بس السجادة اللي انا وقعت عليها كلها تراب غير ان في حد اتكعبل فيها النهارده الصبح غيري والحد ده كان بيحاول ينضف السجادة وفي الحتة اللي تحت رجلينا بالذات.. غير انك ما عملتش دوشة في المطبخ وانت بتعمل القهوة بمعنى ان المطبخ مترتب كويس جدا وكل حاجة مكانها معروف ودي حاجة صعبة على عازب، اعذرني يعني مش مهتم بهندامه الشخصي زيك ولابس شبشب فردتينه الاتنين شمال.

ـ وطبعا انت مستنيني اسألك انت عرفت كل ده منين..

ثم أراح ظهره على المقعد وساقه تعود لتستند فوق أختها

ـ وانا حابب اعرف الحقيقة.

ـ العفش اتنظف النهارده الصبح عشان ده الجمعة يوم التنظيف العالمي في أي بيت مصري أصيل.. بس اللي نضف العفش فتح الشباك الصبح وولع عود بخور ورد هندي أبو خشبة حمرا وحطه في شيش الشباك لحد ما اتطفى لوحده وعلم في البوية البيضا اللي مدهون بيها الشيش.. الحد ده نفسه بقى

أو نفسها بمعنى أصح هو اللي كان بيحاول ينظف السجادة بمقشة معمولة من خوص النخل بدليل العلامات المشرطة لحد ما اتكعبل في البلاطة القبة من الأرض ووقع في مكان قريب من اللي وقعت منه بس لأنها اقصر مني شوية وخدت بالها قبل ما تقع علم كف إيدها في الأرض ومكان ركبها وما كملتش تنظيف نتيجة أن الوقعة كانت شديدة عليها وغالبا هي نايمة في واحدة من الأوض المقفولة دي.. ومن كل اللي انا قولته ده غالبا هي الحاجة.. والدتك يعني.

ابتسامة باهتة ارتسمت على وجهه وتعبير استحسان قطعه دقة بطرف الغليون على منفضة سجائر امتلأت بأعقاب من ألوان مختلفة وبقايا تبغ الغليون المتفحم.

ثم فك أطراف الغليون وهو ينظر خلال مبسمه كأنه على وشك اكتشاف بكتيريا التخمر.

ـ الجميل بقى في الموضوع انك ما كنتش محتاج كل ده.. كنت ممكن ببساطة تشوف العصاية المكسورة جنب الثلاجة والطرحة اللي متعلقة على مسمار فوقها وانت تعرف ان والدتي عايشة معايا هنا.. بس عموما أكل الفول المدمس ساعة مغربية من عربية فول ومعاه طبق بتنجان مخلل بيزود القدرة على الملاحظة برضه.

ـ فول من على عربية ساعة مغربية.. حلوة الأغنية.

وضحكت ضحكة حاولت قدر استطاعتي جعلها سخيفة.. إلا أنه شرع في تعبئة الغليون بتبغه مكملا..

ـ أيوه فول من على عربية.. بواقي الردة على كوعك قالت لي انك كنت واقف ساند على خشب العربية عشان تمسح الطبق بإيدك وما تسيبش منه حاجة.. واضح ان الفول كان عاجبك أوي وما خدتش بالك ان الردة مغرقة رف العربية.. غير بقى صفار البصل اللي متعلق في ضوافرك واللي بيشبه صفار السجاير.. بس انت ما بتدخنش حسب ما قولت لي.. اما بقى بواقي التوم اللي في سنانك مش محتاجة دليل.. ريحتها سابقاها.

ثم تراجع في المقعد متخذا جلسته المعتادة منذ أن ولج هذه الشقة.. وضع الاستعداد.

ـ طبيعي تاخد بالك من تفاصيل زي دي طالما انت بقى لك يومين ما بتشربش غير قهوة ودخان.

ـ وطبيعي ان عينك تركز في تفاصيل صغيرة وتحاول تستعرض بيها عشان ما عرفتش تكمل الكلمات المتقاطعة الأسبوع ده.

ـ أنا مش هسألك عرفت منين.

ـ ولا انا هسألك.

ـ يبقى نخش في الموضوع بقى.

ـ يبقى احسن الصراحة.. معاك ولاعة؟

ـ قولت لك ما بدخنش يا سيدي.

ـ أمال ريحة التبغ اللي في قميصك دي منين.. برفان جديد؟

ابتسم والغليون مثبت بمعجزة ما على طرف فمه.. وعيناه تشعان بريقا لم أره منذ أن رأيته قبل عشر دقائق.

ـ أصل انا كنت في العربية وزميلي اللي معايا..

ـ مش مهم يا سيف باشا.. احكي انا سامعك.

ورحت أحكي..

أحكي بلا انقطاع.

(٣٤)

الفيل الأسود يتحرك من ز٤ إلى و٥.

الطابية البيضاء تتحرك من ج٤ إلى و٤.

الحصان الأسود يتحرك من ح٥ إلى و٤.

الطابية خارج اللعب!



(٣٥)

صوت أذان العشاء

مرت ساعة تقريبا.. هضمت فيها كل ما التهمته من فول فوق عربة الفول العملاقة القابعة بميدان السيدة عائشة.. وشربت فيه قدحين من القهوة وكدت أسقط فيه على وجهي مرتين وأنا أتبعه إلى المطبخ.

ـ قل لي يا أستاذ أكرم.

ـ أكرم بس الله يكرمك..

ـ طيب قل لي يا أكرم بس.. إنت تعرف عماد بقى لك كتير؟

ـ يعني.. بس إيه علاقة السؤال بالحدوتة الغريبة اللي بتحكيها لي دي؟

ـ أصل أول ما كلمته قال لي الموضوع ده ما يفيدكش فيه إلا أكرم.. واداني العنوان قبل حتى ما يكلمك.

ابتسم وهو يصب قدح القهوة الثالث ويطفئ الموقد الكهربائي.

ـ عارف قميصك الواسع إلا انت لابسه ده.. أنا بالنسبة لعماد زي القميص ده بالنسبة ليك.. ما يمشيش من غيري بس في نفس الوقت عمري ما الزق فيه لحد ما يبقى مش مرتاح.. فهمتني؟

تشبيهات تليق به.. صحفي غريب الأطوار «مهرجل» الهندام.. يمشي في خطوات بطيئة رغم سنوات عمره التي تقل عن الأربعين.. يدخن غليونا شبيها بما كان شيرلوك هولمز يدخنه..

إلا أن رأسه تحمل عقلا لا بأس به.. عقلا يأس من الحياة إلا أنه ما زال يعمل بكفاءة.

ـ بص يا سيف باشا.. انا هقول لك كلمتين ممكن يبانوا مش واضحين شويتين.. لكن دول كل الخلاصة اللي طلعت بيهم من حكايتك دي.

ـ كلي آذان صاغية.

استند بجسده إلى رخامة المطبخ المتشققة وهو ـ لأول مرة ـ يدخن سيجارة مصرية تناولها من علبة ورقية مهترئة.

ـ مش كل حاجة بتبان بسيطة تبقى بسيطة.. ومش كل حاجة معقربة تبقى معقربة.

ـ ده إيه الإضافة الهايلة دي؟

ـ بغض النظر عن انك بتتريق وده واضح.. لكن ما تقاطعنيش الا لما اكمل.

وأفقد هوايتي الأثيرة في مقاطعة بني آدم!

ـ الكلام اللي حكيته ده بسيط جدا.. في منتهى البساطة.. شاب دخل عمارة لوحده وأجر فيها شقة.. ارتكب كل الموبقات اللي تخلي كل سكان العمارة في نفس الوقت يبصو له على إنه شيطان رجيم جه يلوث بآثامه البيئة المحترمة الهادية اللي هم عايشين فيها.. وبعدين في لحظة الشيطان ده اختفى فجأة.. فص ملح وداب.. يبقى بمنتهى البساطة يا حد فيهم كان سبب في اختفائه يا هو اختفى من تلقاء نفسه بعد ما حس انه شخص غير مرغوب فيه.. ودي حاجة هيحسها بسهولة من كلامهم وتعاملاتهم معاه.. أو من جوز المخبرين اللي انت وقفتهم على ناصية الشارع عشان المفروض انهم يراقبوه.. بالمناسبة ازي عبد الباقي.. أصل الحركات المكشوفة دي ما يعملهاش غير عقل متفتح زي عقله.

ابتسمت رغما عني.. سمعتك تسبقك يا حضرة الأمين!

ـ بس اللي انا باقوله ده نظرة واحد جوه الفقاعة.. بيبص للدنيا من ورا نضارته هو.. لكن لو طلع برة الفقاعة وبص من براها.. هيلاقي ان البساطة عمرها ما كانت أسلوب حياة..

ثم اقترب مني وهو ينظر مباشرة في عيني وعيناه تلمعان ببريق شيطاني محبب.

ـ عشان كدا انصحك ما تبصش للحكاية من جواها لبراها.. بص على الحكاية من برة لجوه.. بس وانت بتبص عليها.. بص جوه الناس.. وبص كويس.

ثم منحني ابتسامة هادئة.. صحبها صوت المنبه البلاستيكي المزعج..



فأجفل ونظر في ساعة الحائط المعلقة فوق باب المطبخ.

ـ معاد الدوا.

ثم تجاوزني كأني لم أكن هناك.. وحمل حقيبة أدوية بلاستيكية تشبه حقيبة أدوية أمي القابعة فوق تسريحتها بجوار المرآة وهو يهرول ناحية أحد الغرف المغلقة.

نظرت في ساعتي.. واتجهت قاصدا ذلك الباب ذي الشراعة المليئة بالقضبان.. واتجهت هابطا السلم.. صاعدا المنحدر ناحية ميدان صلاح الدين.. متجها إلى سيارتي الكورية موديل ٢٠٠٠

التي اختفت!

(٣٦)

الوزير الأبيض يتحرك من ح٤ إلى د٨.

كش ملك.

(٣٧)

أركب في المقعد الأمامي بجوار سائق تاكسي تبقى له نفسين في رئتيه ثم يسقط مسلما الروح إلى خالقها.

والرذاذ يتطاير من فمي مع حروف تعبر أثير هاتفي المحمول.

ـ يعني ايه الونش شالها يا عبد الباقي.. دي عربية ظابط شرطة.. إيه ما خدوش بالهم من النسر ومن النمر؟ طيب محدش فيهم فكر يستعلم عنها قبل ما يرحلوها على مدينة نصر؟ إيه التهريج اللي احنا فيه ده.. طيب شف لي حد في مرور مدينة نصر عشان اروح استلمها.. ما انا عارف انه زفت بكرة.. النهارده الجمعة ومفيش حد موجود على مكتبه غيرنا.. أنا جاي في الطريق.

وأغلقت الخط وأنا أنظر ناحية عداد السرعة الذي لم يتجاوز الأربعين منذ أن غادرنا موقع سيارتي التي سحبها ونش المرور.. الونش الذي لم يجد ذلك السايس الخائن.. ومصطفى الذي هرب من السيارة ورفض أن ينقده مالا ليحميها من السرقة فلم يحمها من الونش!

بهذه السرعة سوف أصل إلى القسم مع شروق شمس السبت!

ثم كانت النتيجة الطبيعية.

دفعة تلقتها السيارة من الخلف ألقت بالعجوز على المقود.. وكادت تلقي بي فوق التابلوه الأسود.. وسائق ميكروباص غاضب من بطء الشيخ العجوز.. وشيخ دبت فيه الروح وراح يصرخ مطالبا الحكومة أن تمنحه حقه المسلوب وكأنما يرسل لي برسالة خفية أتجاهلها راضيا مستقرا فوق المقعد.

- يا عم الحاج ما انت اللي ماشي بوراحة.

- يا عم انا حر هو شارعك ولا شارع ابوك.

- الصراحة بقى انا ماشي ومش شايفك.

- ما انت لو نورت النور هتشوف.. بس هتعمل ايه في العقول الضلمة اللي مافيهاش نور.

حكيم جدا سائق التاكسي.

حكيم إلى درجة كبيرة!

(٣٨)

أقف أمام الباب الخشبي.

طلاء كان يوما بنيا مشربا بحمرة فخفت لونه وذهبت به الأيام.

مقبض نحاسي أكلته الأكاسيد فأزالت لونه البرونزي المتألق.

عتبة وضع فوقها سجادة خشنة ذهبت منها حروف كلمة WELCOME.

أدق الباب دقات حكومية خشنة.

- إفتح يا أستاذ.. أنا الرائد سيف عبد الفتاح مباحث عامة.



أدق الباب دقات حكومية خشنة متتابعة.

ـ لو ما فتحتش هكسر الباب.

أدق الباب دقات حكومية خشنة متتابعة مدوية.

أسمع أبوابا تفتح وأصوات همهمات متتابعة.

ـ طيب انا هاحذرك آخر تحذير.. افتح يا إما هنكسر الباب.

النجار يقف خلفي مع عبد الباقي وعلى وجهه علامات عدم الرضا.. يريد أن يمارس عمله ويرحل مسرعا لينهي (مرمة) مِن ما يُدفع فيها المال.. بدلا من عمل الحكومة الذي لا خيل منه ولا مال.

ـ إكسر لي الكالون ده يا ابني.

يتقدم النجار إلى دائرة الضوء.. يده الخبيرة تعمل في سرعة مع الباب.. عدة دقات والكالون لم يستجب.

ـ معلش يا باشا من كتر الصدا قافش.

ـ هو أسبوع يعمل صدا؟

ـ أسبوع ايه يا باشا.. ده بقى له ياما ما اتفتحش.

ياما!

ـ طيب اوعى انت بقى.. شوف شغلك يا عبد الباقي.

عبد الباقي يشير لدولابيه ذوي القمصان الرمادية والبناطيل القماشية السوداء.. آخر ما أنتجه خط إنتاج المخبرين في وزارة الداخلية.

دقة.

دقتين.

ثم انهار الباب.

كوم تراب يسقط من فوق الباب.. إطار الباب تشقق من وقع الصدمات الحكومية.. أرفع يدي لأضعها في سمكه العلوي لتعود إلي وقد استحال لونها رماديا!

ـ فتش يا عبد الباقي.. وشوف لي النور بينور منين.

اقتحم عبد الباقي الشقة.. بينما بدير العمدة يهبط درجات السلم بروب

حريري يعلو بنطال بيجاما كاستور وعلى وجهه أمارات الاستياء! فألقى بإذن النيابة في وجهه وأدخل الشقة على ضوء كشافات عبد الباقي ودولابيه الحكوميين.

أكوام تراب في كل مكان.

مقعد خشبي وحيد ملقى بقدمه المكسورة كالشحات الأعرج.. طاولة معدنية فوقها طبقين خاويين يعلو العفن أطرافهما مع تراب كثيف.. دولاب بلا أبواب سليمة وفراش بلا مرتبة.

الماء لا ينزل من الصنبور.. فقط الهواء الغاضب لأن أحدهم اقتحم خلوته داخل الصنبور ثم ماء قاتم محمل بطين مستقر منذ سنوات.

منذ سنوات!

ـ أنا مش فاهم حاجة يا سيف باشا.. الشقة دي ولا كأن حد دخلها من يجي خمس ست سنين.

ـ بالظبط يا عبد الباقي.

ثم حركت الكشاف إلى الحوائط التي تشقق دهانها وبهت.

ـ محدش دخلها خالص.

* * *

بيخرج من غير ما حد يشوفه وينزل من غير ما حد يشوفه.

* * *

إنه واحد طالع لي من قلب عوالم الحواديت اللي كبرت عليها في ألمانيا.

* * *

بص على الحكاية من برة لجوة.. بس وانت بتبص عليها.. بص جوة الناس.. وبص كويس.

* * *

ما انت لو نورت النور هتشوف.. بس هتعمل ايه في العقول الضلمة



اللي ما فيهاش نور.

❋ ❋ ❋

(٣٩)

اللواء زكي المليجي في غرفة مكتبي في القسم.

يجلس على الكرسي خلف المكتب الخشبي العتيق.

يضرب بقبضته على المكتب بين كل كلمة وحرف جر.

وصوته الرخيم القوي ينساب كخلفية من صوت موسيقى تصويرية غاضبة.

ـ اللي انت بتقوله ده كلام عالم مجانين يا سيف.. يعني ايه لقيت الشقة فاضية وما اتفتحتش من سنين!

ردي يأتي من أعماق بئر سحيقة.. يأتي هادئًا ثقيلاً.. حروفا تزن أطناناً.

ـ ده اللي حصل يا فندم وما كنتش لوحدي.. الأمين عبد الباقي ومخبرين القسم كانوا معايا

يمسح بكفه وجهه في نفاذ صبر.. ووقاره الدائم تتكسر أمواجه فوق صخور غضبه.

ـ بص يا سيف.. أنا مقدر يا ابني ان مفيش قواضي مهمة جات لك القسم من ساعة ما اتنقلت هنا.. بس مش معنى كدا اننا هنعمل من أول قضية تيجي دوشة.. ونلم علينا الصحافة والإعلام ونقول لهم كلام اهبل زي اللي انت بتقوله ده.

ـ أهبل؟!

ـ طبعا.. انت عايز تكتب في تقريرك أن الشقة كانت فاضية وما اتفتحتش من خمس سنين! إنت متخيل اللي انت بتقوله ده.. وبعد إيه؟ بعد ما جبت إذن نيابة بناء على بلاغات ومحاضر رسمية ودوشة وهليلة عملتها عشان

تكبر القضية وتعمل منها شغل وتحريات.. متخيل لو صحفي كتب خبر عن إن ظابط المباحث في قسم المعادي بيتهم شبح بأنه مسئول عن محاضر وبلاغات ودوشة كبيرة في عمارة زي دي ساكنها الناس دي.

- أنا ما قولتش انه شبح انا قولت انه..

ضربة جديدة فوق سطح المكتب المتهالك.

- أيا كان اللي قلته مش هيتفسر غير كدا.. وإلا انا طالب منك وحالا تفسير لكلامك ده.

أرفع عيني في وجهه وأحدق في حاجبيه المنعقدين.. في سيجارته التي أسقطت رمادها فوق سطح مكتبي.. في شفتيه اللتين ترتعشان في عصبية.

- الموضوع ببساطة يا فندم ان الشخص ده كان موجود فعلا.

- اللهم طولك يا روح.. طيب وراح فين؟

- كان موجود في عقول الناس دي بس.

- يعني إيه؟

وارتسمت ملامح الحيرة على وجهه وهو يدفن عقب سيجارته الخامسة في قلب منفضة السجائر الحديدية.

- يعني ببساطة الناس دي كانت بتدور على الشخص ده من زمان.. بتدور على الصفيحة اللي هترمي فيها زبالتهم.. بتدور على اللي يحسسهم قد إيه هم شوية أطهار نازلين من السما.. بتدور على اللي يقنعهم انهم احسن بكتير من ما هم متصورين.. بتدور على الحد اللي يخليهم يبطلوا يكرهوا نفسهم ويرموا عليه كرههم.. وبمجرد ما لقوا الشخص ده.. صنعوه وعملوا منه شخص وكيان.. بس مش كيان حقيقي.. كيان في عقولهم بس.. كيان اخترعوه عشان يكسروا بيه صمتهم.

- يعني انت بتتهم سكان العمارة بإنهم توهموا وجود شخص مش موجود.. بتتهمهم بالجنون يعني؟

- باتهمهم بالجهل والتطرف والتكبر والفساد.. باتهمهم بإنهم راسمين على وشوشهم وشوش يقابلوا بيها الدنيا.. بس نفسهم البشرية المريضة ما

قدرتش تستحمل الوشوش عليها اكتر من كدا.. بتهمهم بإنهم مجموعة من الأوثان اللي من كتر صمتها اتشققت مع أول صوت يقول لهم بصراحة.. أنتم كالحجارة أو أشد قسوة.

ـ إنت مدرك للكلام اللي انت بتقوله ده؟

وأخرج سيجارة أخرى وضعها بين شفتيه وأشعلها على ثلاث مرات.

تك.. تك.. تك.. تك

ثم ألقى بالقداحة على سطح المكتب.

ـ إنده لي الأمين عبد الباقي والظابط النبطشي.

أرفع عقيرتي مناديا عبد الباقي فلا ترتفع.. أنهض حاملا دهوني وأفكاري وحروفي ورأسي التي تلف زنبركها فصارت تدور بلا انقطاع.

عبد الباقي يقف خلف الباب فأشير له أن يدخل وأنا أجر ساقي عابرا الممر نحو مدخل القسم

أسمع صوت اللواء زكي المليجي.

رخيا

واثقا

يأتي من خلف حجاب الصمت.

ـ هات لي المحضر اللي كتبه سيف باشا النهارده الصبح وانده لي الظابط النبطشي.

ـ بس سعادتك سيف باشا.

ـ سيف باشا في أجازة من النهارده عشان تعبان شوية.. وبعدين اتحرك يا ابني.

واصطدم على باب القسم بفهمي الشناوي يرتدي نظارته السوداء وأصابعه الرفيعة تهندم شاربه الرفيع.

أين انت يا مصطفى؟!

أين أنت؟!



أجلس في مقعد حديث وثير أغوص فيه حتى وسطي.
وتجلس هي أمامي.
تحمل في يدها أسطوانات.. وأوراق.. وكروت.. وصور فوتوغرافية.. كلها نائمة في صندوق كرتوني أنيق.
تجلس أمامي بشعرها الهائش الملتف.. وأظافرها المصبوغة بلون قرمزي داكن تقشر أغلبه.. وبنطال الجينز القصير متآكل الأطراف.
ـ أنا كنت عارفة.
ـ كنتي عارفة ازاي يا فريدة؟
ـ بلاش عارفة.. كنت حاسة.
ثم تزاحمت سحب توشك على الإمطار فوق مقلتيها العسليتين..
ـ كنت حاسة انه ما ينفعش يكون حقيقة.. كان أجمل من إنه يكون بجد.
ـ أنا آسف بس هي دي الحقيقة.. والدليل بين إيديكي.
نظرت إلى الصندوق والسحب تتكاثر فوق مقلتيها وتجمع أمطارها فوق أطراف أجفانها.
ـ كنت بستنى كل يوم على الباب لحد ما اسمعه بيدق الباب.. خبطتين ونص خبطة.. وفي إيده حاجة حلوة لي أنا بس.. يقف على طرف الباب ويضحك.. ساعتها الشمس تطلع على عتبة بابي.. ساعتها أغسل روحي من همومي وقرفي وقاذوراتي.. خمس دقائق روحي بتاخد فيهم أجمل دش ممكن تاخده في حياتها.. يسمعني مزيكا عمري ما سمعتها.. ويكتب لي كلام عمري ما قريته.. يفرجني صور عمري ما شوفتها.. ويسيبني وانا مسافرة لزمن الحلم اللي بشوفه جوة عينه.. إزاي صدقت ان ده بجد.. إزاي تخيلت انه ممكن يحصل.. إزاي عقلي صور لي مرة اني ممكن يبقى في حد مش عايز مني حاجة غير انه يسعدني وبس.. إزاي كنت بتخيل النظرات دي في عينه لي انا.. إزاي؟!

الأمطار توشك على الهطول.. وبدأت تنساب من عينيها فتحفر في وجنتيها نهرا سيمتلئ سيلا.

- إزاي حسيت ان ده حقيقة.. إزاي؟!

ثم ألقت بالصندوق أرضا وهربت إلى أرض أخرى قد تتحمل أمطارها.

وداخل الصندوق تقع أسطوانات وخطابات وبطاقات وصور فوتوغرافية.

منحتها هي لنفسها!

(٤١)

الوزير الأبيض يتحرك من ه ٨ إلى و٨.

كش ملك.

الملك الأسود يتحرك من ح٨ إلى ح٧.

الطابية البيضاء تتحرك من و٦ إلى ح٦.

كش ملك.

مات!

(٤٢)

أفقي

٩ - حالة من حالات اللا وعي (معكوسة).

١٠ - مرض نفسي.

(٤٣)

أقف خلف الباب محاولا السيطرة على أزرار سترتي.. سترتي التي لم تعرف ضفتاها يوما طعم الالتقاء ولم تذق أزرارها البلاستيكية شرف

المبيت داخل فتحات العراوي المحاطة بخيط أسود محكم.. سترتي التي لا أجد سبيلا سوى تفصيلها بيد أمهر خياطي مصر الجديدة حتى تستوعب تضاريس جسدي المترهلة الشبيهة برمال صحراء الربع الخالي.

سترتي التي..

حسنا اتفقنا ألا أسترسل.

لم نتفق! فلنعتبره اتفاقا إذن.

دق باب الحجرة طالبًا الإذن بالدخول.. فيأتيني من حنجرة تشبه حنجرة محمود سلطان في عالم الحيوان.. أخطو طريقي محاولا جعل خطواتي متماسكة داخل البنطال القماشي نحو المكتب الخشبي الأنيق المطعم بالصدف ولوحة نحاسية كتب عليها بخط أسود لامع.

لواء/ زكي المليجي

لا بد أن أبدو رابط الجأش متماسك الأعصاب.. ما أقوم به الآن يحتاج إلى ثبات.. يحتاج إلى إخراج كل مهاراتي الكامنة في قراءة الأجساد والعيون والأصوات.. لا بد أن أعرف كيف ومتى أوجه ضربتي.. ضربتي الأخيرة.

ـ صباح الخير يا فندم.

ـ أهلا يا سيف.. اقعد وفك زراير البدلة.. شكلك عامل زي ابراهيم نصر في الكاميرا الخفية.

رسمت ابتسامة سمجة على شفتي وأنا أفك وثاق الأزرار المسكينة وأريح طرفي سترتي من لقاء لم يحباه وألقي بجسدي فوق المقعد لتبرز ترهلات جسدي من أسفل مسانده الجلدية.

ـ هي الوزارة بطلت تجيب كراسي واسعة يا فندم؟

ـ لا وانت الصادق الوزارة بطلت تعين ظباط من الحجم العائلي.

ـ وده هو الموضوع اللي انا جاي لحضرتك فيه.

خلع نظارته الطبية الأنيقة وعاد برأسه الرمادي المصفف شعره بعناية فائقة إلى ظهر مقعده ويداه تعبثان فوق المكتب باحثة عن علبة سجائره الفضية.



ـ خير يا سيف؟

ـ إتفضل سعادتك اقرا دي الأول.

أشعل سيجارته المستوردة وهو يتناول الورقة المطوية التي تحملها يدي وفض بكورتها المزيفة وهو يقلب بعينيه فوق سطورها.. عينيه اللتين تغير اتساع بؤبؤهما من الخمول إلى الدهشة إلى الغضب.

ـ إيه ده يا سيادة الرائد؟

ـ استقالتي يا فندم.

ـ وبتستقيل من الخدمة ليه يا سيف؟

ـ ببساطة يا فندم.. أنا ما بعرفش.

ـ وده إيه علاقته بالاستقالة يا ابني.. هو انا دكتور أمراض ذكورة.

ألقى بالورقة فوق مكتبه وهو ينفث دخان التبغ من طرف شفتيه.. أصابع يديه اليسرى تضغط على المكتب وصوت حفيف ساقيه المهتزتين أسفل المكتب يثقب أذني.

ـ يا فندم انا ما بعرفش ابقى ظابط شرطة.. حضرتك عارف كويس أوي ان الموضوع ده بدأ من زمان أوي.. من وانا مراهق في ثانوية عامة.. أو بالأصح من وانا عيل بيجري ورا الكورة وما بيعرفش يحصلها.. هو بصراحة بدأ من أول ما الداية سحبتني من بطن أمي وقالت لهم انه ولد..

ـ أنا مش فاهم حاجة.. ما تخش في الموضوع يا ابني.

ـ ما هو ده الموضوع نفسه يا فندم.. أنا ابويا قرر اني ابقى ظابط شرطة من وانا في اللفة بغير كوافيل.. عمى عينه وما صدقش كل اللي حواليه لما قالو له ان سيف ما ينفعش يبقى ظابط أبدا.. سيف رغاي.. بياخد باله من التفاصيل.. فذلوك أوي.

ـ فذ.. إيه؟

ـ فذلوك يا فندم.. من الفذلكة يعني..

أطلق ضحكة هيسترية مشبعة بادِّعاء الوقار.. سيادة اللواء يحاول إخفاء عصبيته.. هو يعرف من أنا ويعرف أنني لا أخشى أحدا ولا أغلق فمي..



هو يتوقع مني الأسوأ.. فلأمنحه إياه إذن.
ـ كمل يا سيف ده انت لقطة.
ـ ربنا يخلي سعادتك يا فندم.. المهم اني كبرت وشبيت ودخلت كلية الشرطة وانا وزني ١٠٠ كيلو عشان ابويا لوا شرطة.. اتخرجت واتعينت واترقيت عشان ابويا ظابط شرطة.. الله يرحمه ما كانش مصدق أنه ما ينفعش ما ابقاش ظابط شرطة أبدا.. لإني ببساطة ما بعرفش.
ـ يادي ما بعرفش اللي انت طالع لي فيها.. إنت ما بتعرفش إيه بالظبط؟
ـ رغم تلميح حضرتك المستمر بس انا هاجاوب سؤالك ببساطة.. أنا ما بعرفش اقفل محاضر زي ما حضراتكم عايزين.. ما بعرفش اوجه شهود زي ما حضراتكم عايزين.. ما بعرفش استجوب متهمين زي ما حضراتكم عايزين.. ما بعرفش اعمل حاجة من شغل ظابط الشرطة غير اني افكر واشغل مخي.. بس اكتشفت مؤخرا ان حضراتكم مش عايزين.. يبقى انا ببساطة ما انفعش لأني ما بعرفش ما اشغلوش.. هو شغال لوحده طول الوقت.. حاولت اسيطر عليه ما عرفتش.. لدرجة انه خلق لي عالم وناس ودنيا مش موجودة عشان يعرف يلاقي حاجة تشغله في وقت فراغه.. ولاني مش غاوي تأخير ترقية ولفت نظر كل شهرين تلاتة عشان اتأخرت في قضية.. ولأني ببساطة ما بعرفش ما اشغلوش ولا بعرف ابطله.. يبقى وجودي برة المكان ده كله احسن ألف مرة ليا وليه..
ثم أنهض.. أنهض مسرعا للمرة الثانية في حياتي.. المرة الأولى كانت عندما رفع والدي سلاحه الميري في وجهي عندما أخبرته أنني سأستقيل بعد نقلي للصعيد..
ـ أنا جيت لحضرتك بس عشان علاقة الصداقة اللي كانت بينك وبين المرحوم بابا.. لكن انا هودع الاستقالة شئون الظباط بعد ما اخرج من هنا.. وأرجو من حضرتك انك ما ترفضهاش.. ورحمة أبويا ما ترفضها.
ثم أعدت تعذيب أزرار سترتي.. واديت التحية للمرة الأخيرة في حياتي والتفت ناحية الباب مغادرا.

ثم تذكرت شيئا فتوقفت والتفت ناحية سيادة اللواء الذي ارتسمت على وجهه تعابير الامتعاض وخيبة الأمل.. وجملة (يا خسارة تربيتك يا ابراهيم) تخرج من عينيه كشعاع ليزر حارق.

ـ نسيت اقول لحضرتك ان الأسيتون ما بيشيلش آثار صفار الضوافر بتاع السجاير.

ـ أسيتون ايه.. إنت عرفت الكلام ده ازاي.. إنت مش هتبطل أسلوبك المستفز ده؟

ـ الموضوع بسيط أوي يا فندم.. الحكاية كلها ان..

ثم بترت كلامي وكأن لساني قد اجتث من منابته.. ورسمت ابتسامة واسعة على قسمات وجهي العريض أزاحت وجنتي إلى أطراف وجهي.. ثم خرجت وأغلقت الباب خلفي.

وهنا فقط عرفت أن الصمت لا يريح.

الصمت دائما يزعج.

* * *

والغراب..

لم يرفرف أبدا.

ما زال يجلس على تمثال بالاس الشاحب.

تماما فوق باب حجرتي.

وعيناه كعيني شيطان يحلم.. وضوء مصباح يتدفق ليلقي بظله على الأرض.

وروحي طافية تبرز من داخل الظل.

وأبدا

لن تخرج منه بعد اليوم!

قصيدة الغراب ـ إدجار ألان بو ـ

* * *

أقود سيارتي فوق الطريق الملتوي كالأفعى صاعدا إلى هضبة المقطم.. مصطفى يجلس بجواري ودخان سيجارته يصنع مزيجا محببا للنفس مع عطر دانهل ديزاير الفواح ورائحة نسيم الليل الصيفي.

- إنت هتفضل ساكت طول الطريق؟

- أنا مش عارف إيه اللي فكرك بالمقطم دلوقتي يا سيف.

- عادي يا درش.. أهو تغيير.. هو احنا يا نتقابل في المكتب يا نقعد نلف بالعربية زي سواقين التاكسي لحد ما انام فوق الدريكسيون.. إيه البرفان اللي انت حاطه ده؟

شم رائحة قميصه ثم نظر نحوي غير مميز له.

- غالبا دانهل حاجة.. ديزاير ولا بلو.. مش فاكر.. وبعدين حاستك السادسة ما قالت لكش ده برفان ايه؟

- لا قالت لي.. بس قولت انكشك شوية.

انحرف متجها نحو شارع الهضبة الوسطى المظلم أغلبه.. مصطفى لا يبدو قلقا ولا يبدو مرتابا من تحويلي مسار الطريق إلى هذا الشارع المظلم الذي لا يرتاده ليلا سوى محبو الهدوء والمخدرات فقط.

- مش شايفك قلقان يعني ولا ما خدتش بالك.

- ليه يعني.. عشان خدت طريق الهضبة الوسطى؟ إحنا ظباط شرطة يابا.

- إنت.. أنا خلاص.

- إنت نفذت اللي في دماغك برضه.

- من نحو ست ساعات بالظبط.

توقفت إلى جانب الطريق.. وخرجت من سيارتي انظر بكلتا عيني إلى أنوار القاهرة.. بينما مصطفى جالس مسندا يده اليمنى على باب السيارة المغلق.. الأنوار تسطع اليوم كما لم تسطع من قبل.. أستطيع أن أميز كل

مجموعة من الأنوار لأصنفها إلى مناطق.. هناك تقبع منشية ناصر بأضوائها الكثيفة.. وهناك البساتين بأضوائها المكتومة.. وهناك..

ـ سرحت في إيه؟

ـ إحنا صحاب بقى لنا قد إيه يا درش؟

ـ من أيام ما كنا في عنبر واحد في الكلية.

ـ وعمري كدبت عليك أو ختتك أو غشيتك؟

ـ ما حصلش.

ـ يبقى سامحني عشان لأول مرة هعمل كدا.

ثم التفت حول السيارة متجاهلا نظراته المندهشة ورحت أدفعها نحو الحافة.

ـ إنت بتعمل ايه يا مجنون؟

ـ ما تتعبش نفسك يا درش.. الباب مقفول بالسنتر.. ولو حاولت تنط من القزاز مش هتعرف.. ببساطة لأني خلاص اتأكدت.

ـ إعقل يا سيف وبطل هبل.. إتأكدت من إيه؟

ـ إن اللي بعمله ده هو عين العقل يا درش.. عين العقل.

ثم تركت السيارة تهوي من فوق الحافة وتصدم يمينا ويسارا بصخور المقطم العملاقة.. فتنقلب حتى تهوي محدثة دويا صاخبا شق سكون الليل.

رحت أراقب السيارة المقلوبة.. وخيط من البنزين ينساب منها في نعومة فوق الصخور الخشنة

صخب راح يدوي في رأسي.. وصوت صرخات مصطفى المستغيثة يدوي في أقصى أقاصي لا وعيي.

صوت أمي تبكي وصوت عبد الباقي وهو يمصمص شفتيه مترحما على أيام سيف باشا العامرة الخاوية.. وصوت اللواء زكي وهو يضرب بقبضته فوق المكتب رافضا التصديق.

لطالما تمنيت أن يعود الصمت.. أن يعرف عقلي السكون.. لا هذا عكس ما أتمناه.. اتمنى أن يعود مصطفى من جديد.. برائحة تبغه النفاذ وعطوره الفواحة.. وذكائه المحدود.

إلا أن مصطفى لم يعد من جديد.

لأن مصطفى لن يعود من جديد.

- مع السلامة يا مصطفى.. أوعدك لو رحلة العلاج ما نفعتش مش هلاقي صاحب تاني زيك.

ثم أخرجت علبة السجائر من جيب سترتي وأنا أتشمم فوق قميصي الأبيض الواسع ذي الياقة المكوية بنوع رخيص من نشاء الكي رائحة عطري الفواحة.

دانهل ديزاير

سيف الدين عبد الفتاح
القاهرة
(في زمن ما)





المراجع والمصادر

١ ـ مقال (قصص القيامة) ـ بيتر هيسلر

٢ ـ محاضرة (قصة مرض نفسي من الداخل) ـ إلن ساكس

٣ ـ الكتاب الاحمر ـ كارل جوستاف يانج

٤ ـ الثقافة أثناء الفترات الانتقالية: مصر بعد ثورة ٢٥ يناير ـ مقالات مجمعة

٥ ـ تفهم الطبيعة البشرية ـ ألفريد إدلر



شكر خاص جدا جدا إلى كل من شاركوني سباقي حتى وصولي إلى خط النهاية.. عن قصد منهم أو عن غير قصد.

- أحمد عبد المجيد
- عادل عجواني
- لينا نابلسي
- نورا ناجي
- ألبرت يعقوب
- أحمد القاضي
- محمد فؤاد
- فريدة عمرو
- سمر أحمد

وأخيرا وليس آخرا
هاني عبد الله
الرجل الذي يصنع من الحلم حقيقة

صمت مزعج

وافدٌ جديدٌ أنت.. لا تنتمي لهذا العالم الذي خلقوه، فألفوه، فأصبحوا متحفزين للدفاع عنه.. يمقتون ابتسامتك اللاهية، وعينيك الساخرتين، وفمك المغلق دائمًا.

ربما عليك أن تعرف أن هناك، خلف الأبواب الموصدة، توجد حقيقة واحدة.. فحين يجتمع كل سكّان بناية تسكنها على بغضك.. فاعلم أنهم يطاردون فيك أسوأ مخاوفهم.. أنت.



ميسره الدندراوي

كاتب مصري من مواليد القاهرة عام ١٩٨٠، تخرج من كلية الهندسة جامعة حلوان عام ٢٠٠٣، ويعمل حاليًا مدير خدمات فنية بإحدى شركات إدارة المنشئات. صدرت له عدة أعمال، أهمها رواية "آثار جانبية" عام ٢٠١٥.



للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف كريم آدم